الأشخاص الذين يلعبون بالنار

من البدهي التأكيد على استحالة توطيد الأمن في بلد ما دون فهم سكانه. ومن هنا يضطلع المترجمون والمترجمون الفوريون بدور كبير في وقت الحرب. ويعد العراق أفضل مثال على ذلك. وفي خضم الأحداث، حتى هذا الدور يصل إلى منحهم السلطة في تحديد حياة الأشخاص المطلوبين و المعتقلين أو مماتهم. لذلك، يُطرح بقوة موضوع كفاءتهم وأمانتهم. ولكن السؤال هو: أية أمانة، وتجاه من؟

إن عمل هؤلاء المترجمين لصالح "العدو"، الولايات المتحدة الأمريكية، وقيام جيوش التحالف بوضعهم في فوهة المدفع، يجعلهم "خونة" وأهدافًا أولية للمجموعات المسلحة العراقية. وهناك العديد من الضحايا من بين المترجمين. بل إن هناك أيضاً الكثير من الهفوات المثبتة لهؤلاء الرجال والنساء ذوي المؤهلات المختلفة والدوافع الغامضة جداً أحياناً.

من هم "مترجمو الحرب"؟ ولِمَ يقومون باختيار مثل هذا النوع من العمل؟ وكيف أصبح هؤلاء "خونة" بوجهين: خونة في نظر العراقيين، بل خونة أيضاً لأرباب العمل الأمريكيين؟ هناك الكثير من الأسئلة التي تعكس حالة تعقيد الأوضاع في الميدان. ونسوق الآن بعض الصور.

ليلى المسلمة

نحن في نهاية عام ٢٠٠٤م، بعد مرور سنة ونصف على بداية الحرب في العراق. قامت الصحافة المختصة بسرد قصتها[1]. تُدعى ليلى وهي من وسط العراق، تعمل مترجمة لدى قوات التحالف في منطقة الثوار بالأنبار. انقلبت حياتها رأس على عقب

---

[1] المصدر: العريف فيرونيكا تيسكوفسكي، من أول قوة عسكرية لقوات البحرية في العراق. المؤلف

وذلك بسبب عملها. وتعد قصتها هاوية نحو جهنم، حيث تكشف الكثير عن ظروف النساء العراقيات بشكل عام، وعن استحالة عملهن مترجماتٍ على وجه التحديد.

في البداية، كان عملها مترجمة لصالح قوات التحالف نابعًا من نية حسنة هي القيام بمساعدة الأمريكيين على إعادة إعمار بلدها، ومساعدة مجتمعها على الاستفادة من حقبة الحرية لما بعد صدام. إلا أنها بعد قضاء سنة في مهنة الترجمة، وجدت نفسها معزولة ومهددة ومطاردة ووحيدة، تعيش منزوية بهوية مزيفة داخل قاعدة عسكرية أمريكية تحت حماية أمنية مشددة.

ولدت ليلى البالغة من العمر ٢٨ سنة في بغداد في كنف عائلة ميسورة الحال من أب عراقي سني من مدينة الفلوجة، ومن أم تركية مسيحية ماتت عندما أنجبتها. التحقت بمدرسة كاثوليكية في عمر ٥ سنوات وحتى بلغت الثانية عشرة، واكتسبت منذ المرحلة الابتدائية عدة لغات من ضمنها اللغة الانجليزية.

ترعرعت في بيئة متعددة الثقافات والطوائف الدينية ينتمي إليها قليل مما يحالفهم الحظ من العراقيين. وهي تعيش في وفاق وانسجام مع عائلتها المسلمة السنية من جهة الأب، وعائلتها المسيحية الكاثوليكية من جهة الأم. غير أنها في كلتا الحالتين، تغض من شأنها باعتبارها امرأة. إذ تشعر أن التقاليد والدين قضيا عليها وهذا ما يضيق به الفرد ذرعاً في العراق اليوم.

في سن الثالثة عشرة، و في نفس اليوم الذي حصلت فيه على شهادة المرحلة المتوسطة، أخبرها والدها مفتخراُ بأنها الآن في سن الزواج، إلا أنه انتظر ثلاث سنوات قبل تزويجها فعلياً. وخلال هذا الوقت، باتت خطيبة رجل لم تعاشره من قبل.

وفي سن السابعة عشرة، تزوجت من رجل كبير في السن من العائلة يبلغ من العمر ٤٢ سنة، تعرفه بالاسم منذ زمن طويل، لكنها لم تحبه أبداً. غير أنه كان يعاملها

معاملة حسنة، ويترك لها مساحة كبيرة من حرية التصرف وأتاح لها الفرصة لإكمال الدراسات العليا في الجامعة.

في سن الثامنة عشرة، أنجبت ابنها الأول، والتحقت بجامعة بغداد على أمل الحصول على شهادة في الهندسة. وخلال السنوات التي قضتها بالجامعة، أنجبت ثلاثة أطفال آخرين. و مجمل القول: إن حياتها -وذلك باعترافها شخصياً- أفضل بكثير من حياة غالبية قريناتها من النساء العراقيات.

إلا أن حياتها المستقرة شهدت نقلة مأساوية منذ الأيام الأولى للحرب في شهر مارس ٢٠٠٣م، حيث قررت عائلتها من جهة والدها معارضة دخولها الجيش الأمريكي، فغادرت العراق لتقيم في تركيا بجانب عائلتها من جهة والدتها. وقد رفضت ليلى القيام بذلك وقررت البقاء في العراق بجانب زوجها وأطفالها، حتى بعد سقوط نظام صدام حسين، بل حتى بعد هجرة آلاف العراقيين.

ذات يوم، كانت ليلى شاهداً في الحي الذي تقطن فيه على اعتقال الجنود الأمريكيين بسيارتهم المصفحة لأحد جيرانها الذين تعرفهم جيداً. وبطبيعة الحال، كان الجنود يتكلمون الانجليزية، وكانوا يحاولون أن يشرحوا للجيران الغاضبين من ذلك سبب إيقاف جارهم، وذلك قبل نقله معهم. وقد ازداد التوتر، وتدخلت ليلى بذكاء للدفاع عن جارها عند الجنود ولتوضيح وضع جارها أمام قانون حيازة الأسلحة. في الحقيقة، ليس بإمكان الرجل المعتقل أن يدافع عن نفسه؛ نظراً لأنه لا يتكلم الانجليزية البتة. إلا أن بندقية الصيد القديمة التي لديه كانت جزءًا من الإرث العائلي، وليس لها أية صلة بترسانة الحرب التي يبحث عنها الأمريكيون.

وبفضل ليلى تم حل المشكلة دون قتال ولا سفك دماء. وكانت هذه الوساطة محل تقدير وإعجاب الأمريكيين الذين عادوا فيما بعد معترفين بحسن هذا الفعل

ليقترحوا عليها العمل مترجمة لصالحهم. فلم تتردد لحظة واحدة، انطلاقاً من مبدأ استطاعتها مساعدة العراقيين، فهناك الكثير منهم لا يتكلمون الانجليزية، وبذلك تقوم بتسهيل مهمة الحكومة.

وبالنسبة لها، فإن عملها هذا عبارة عن حلقة وصل بين الأمريكيين والعراقيين، كما أنه يسهل التواصل بين الطرفين، ويسهم في رأب الفجوة الثقافية التي تفصل بينهما. وهي مقتنعة بأن الجميع يعمل بنية صادقة وأن من واجبها المساعدة في إعادة إعمار بلدها، وذلك بمساندتها عمل هؤلاء الجنود. إنها نظرة مثالية في بلد يعيش ويلات الحرب.

ولأن وظيفتها الجديدة يُنظر لها نظرة سيئة أولاً من قبل جيرانها الذين لم يلبثوا باتهامها بأنها متعاونة مع جيوش الاحتلال الأمريكية، ومن ثم من المتمردين الإسلاميين الذين سرعان ما اعتبروها "عميلة للكفار".

وتجلى العداء في البداية تجاه اختيارها من خلال المعاملة السيئة لأطفالها حين تكون في عملها بعيدة عن حيها. إذ يتعرضون للإهانة ولكسور في أذرعهم، إشارة إلى غضب وسخط المجتمع. وبعد ذلك، تم توجيه الاتهامات لها شخصياً بصورة مباشرة ودقيقة للغاية. فالجميع يتحدث عنها على أنها "عميلة". ومع تفاقم أخطاء الأمريكيين الفادحة، فإن مصيرها أصبح معروفاً.

علاوة على جيرانها الذين يكنون لها الكراهية على ما عملته، فإن عائلتها باتت تشعر بالخيانة والإذلال. هذا وقد قام أخوها الأكبر العائد من تركيا بتهديدها بالقتل إذا لم تترك عملها مع الأمريكيين. ولولا تدخل أمه لربما كان نفذ ذلك؛ حيث إنها ذَكَّرته بأن ليلى ليست "أخته الشقيقة"، بما أن أمها توفيت عندما أنجبتها. بالتالي، أُنقذ شرفه

"بصفته الأخ الكبير". فهذه المرة، أنقذت التقاليد الراسخة في العقول حياتها من الموت، المهم أن ذلك يُحل بثمن إهانة لا مثيل لها.

عندما أدركت ليلى أن حياتها في خطر، هربت من منزلها وسُمح لها بالإقامة وزوجها وأطفالها في داخل "المنطقة الخضراء" في وسط بغداد مع بقية الرعايا الأجانب. واستمرت بمساعدة الأمريكيين وذلك بعملها رسمياً مترجمة تحريرية في الإدارة المركزية ومترجمة فورية عند الحواجز الأمنية في الطرق و نقاط التفتيش في العاصمة.

بدأ أفراد عائلتها بالبحث عنها عازمين على قتلها. فهي بالنسبة لهم انحازت للعدو وبشكل نهائي، وأصبحت "خائنة". وتعرض زوجها أيضاً للتهديد على الرغم من أنه لا يعمل مع الأمريكيين، إذ لم يتوان عن الفرار. فقد قرر هجر زوجته ليتقي شر انتقام العائلة.

علمت ليلى فيما بعد أنها مطلقة، وأن زوجها قد استقل سيارتها، وأخذ مالها، واستولى على شقتها ليقيم فيها مع امرأه أخرى كانت أفضل صديقاتها حيث تزوجها بعد ذلك بقليل من الوقت. كل هذا لأنها رفضت أن تترك عملها مع الأمريكيين، و أن تعود إلى بيت الطاعة.

إن زوجها لم يتوقف عند هذا الحد، بل قام بترصد حركاتها وحاول لأول مرة اغتيالها. لكنها نجت بأعجوبة، وقبض العسكريون الأمريكيون على زوجها لمحاولة اغتيال موظفة الحكومة الأمريكية. وعلى الرغم من تحذيرات الأمريكيين لها، فقد كانت شفيعة زوجها لإطلاق سراحه، وذلك خشية من انتقام عائلة زوجها من أطفالها ومنها شخصياً.

وعند إطلاق سراح زوجها، قام باصطحابها بالقوة معه إلى المنزل، وحبسها ثلاثة أيام دون ماء ولا طعام؛ فتصرفات زوجته السابقة جلبت له العار، وهو يعارض

جملة وتفصيلاً استمرارها في العمل مع الأمريكيين. ومجمل القول: إن زوجها كان يضيق ذرعاً بأن تكون له زوجه "عميلة" و "خائنة"، وحتى إن كان قد طلقها.

وأدركت ليلى أن مصيرها هو الهلاك عندما هددها ببوحه لعائلتها عن مكان اعتقالها. ومن باب الشفقة، قام ابنها الأكبر بمساعدتها على الفرار، معترفاً لها أن خاله سيقتلها. وكانت هذه هي المرة الأخيرة التي سترى فيها أطفالها.

واستأنفت ليلى عملها مترجمة مع قوات التحالف، وذلك بعد قضاء ثلاثة أسابيع في المستشفى لمعالجه جروحها، ولتتعافى من حبسها في بيت زوجها الذي حرمها الأكل وأنهكها بالضرب.

وقد استلمت ليلى رسالة بريدية من أقرب صديقاتها التي أصبحت منافسة لها تخبرها بأن عائلتها قد أهدرت دمها مقابل مكافأة مقدارها ٥٠٠٠ دولار. وأن والدها هو من قدم هذه المكافأة المتاحة لجميع رعايا البلدان العربية المجاورة، إذ كان عددهم كبيرًا في ذلك الوقت في العاصمة العراقية. ومنذ ذلك الحين، فهي حتى لم تعد تستطيع الفرار من العراق لتجد ملاذاً آمناً في سوريا أو في الأردن. إنها فعلاً سجينة المنطقة الخضراء.

غير أن ليلى لم تعد خائفة من شيء؛ لأنه لم يعد لديها شيء تخسره، فهي خسرت مسبقاً كل شيء. إذ كانت ترى في عملها يوميًا عشرات الموتى كما رأت بعينيها موت أربعة من زملائها في الفرقة، منهم ثلاثة ضربوا حتى الموت "لعملهم" مع قوات التحالف. فهذا مصير جميع "الخونة".

إن الشيء الوحيد الذي مازال يبعث فيها الرغبة هو أنها نالت ثقة جنود البحرية الذين لم يعودوا قادرين على الاستغناء عن خدماتها. فهي تمثل وسيطًا لا يمكن الاستغناء عنه، وهم مدركون أنها تخاطر بحياتها يومياً ببقائها معهم، وأنها تعرض

نفسها للموت بمرافقتها للمواكب، وبمساعدتها لدوريات المعركة، وبتجهيزها في الميدان للهجمات ضد الثوار.

لكن ليلى تحب مهنتها حباً جمًا لدرجة أنها لا تستطيع تركها. فقد عملت لنفسها رسالة مهنية في العمل، فهي مؤمنة بمهمتها كوسيط كما أنها مقتنعة بأنها في المكان المناسب لمساعدة أبناء جلدتها، وأن لها الخيار في نهاية المطاف في أن تعيش حياتها كما تريد، وأن تناضل من أجل حرية أبناء جلدتها، مناضلة في البداية من أجل حريتها.

بالنسبة لليلى، إن هذا المعسكر المحصن هو بيتها الجديد، تعيش فيه وتعمل به يومياً مع الجنود، وتشاطرهم الأفراح والأتراح. غير أن مصيرها في العراق يبدو لها مظلمًا دون بصيص أمل يلوح بالأفق. ولذلك، فهي تحلم بالولايات المتحدة؛ حيث قُدم لها عرض عمل في شركات أمريكية خاصة تعمل على الأراضي العراقية، لكن دون أن تحصل أبداً على تأشيرة للهجرة إلى أمريكا. إلا أنها ترغب في الالتحاق بالجيش الأمريكي الذي أصبح عائلتها الثانية، والذي علمها الرماية بالمسدس. فكان حلمها أن تصبح ضابطاً برتبة ملازم أول في سلاح الطيران، وأن تعيش في ولاية نيويورك. وأملها الوحيد التعرف على المبشرين بالإنجيل. في ظل غياب الحل، ارتكبت "ليلى المسلمة" كما يطلق عليها زملاؤها، ما لا يمكن تصوره في المجتمع العراقي: ألا وهو اعتناق المسيحية أملاً في الحصول على اللجوء السياسي كونها تنتمي إلى أقلية مهددة، وبالتالي تحقيق حلمها الأمريكي.

كاتي المبشرة

ترجعنا قصة ليلى المسلمة المثيرة والمسخطة في نفس الوقت إلى الصراع المخيف الذي وقع فيه "الوسطاء الثقافيون"، فمترجمو الحرب هم في الحقيقة مترجمون في حالة حرب شاؤوا أم أبوا. إلا أن الحرب في العراق تزودنا بقصص أخرى مؤلمة بهذا الشكل، وأكثر وضوحاً تخص هذه الكائنات المخلوقة من دمٍ ولحم.

كاتي سيدة شقراء تمثل النموذج الأمريكي من ناحية المظهر. فلا شيء يميزها عن السيدات الأخريات الأمريكيات، ماعدا إتقانها للغة العربية الذي قادها إلى العمل في صفوف الجيش الأمريكي. ومنذ بداية الحرب في العراق، انضمت إلى هيئة "اللغويين" للإسهام في نشر الديمقراطية في منطقة تعرفها منذ وقت طويل.

هي تنحدر من أب و أم أمريكيين مبشرين، وقد عاشت ليلى ١٨ سنة في القدس قبل أن تهاجر إلى الولايات المتحدة. قام والدها ووالدتها بتسجيلها في مدرسة ابتدائية "مختلطة" حيث يُدرس بها اللغة العبرية واللغة العربية. كان لها ذكريات سيئة جداً لهذه التجربة التي لم تمنعها من أن تنضم لصفوف الجيش منذ أن علمت أن الولايات المتحدة سوف تجتاح العراق، أحد مواطن القومية العربية التي يبغضها والداها كثيراً.

عملت على الفور في الجيش، ليس فقط لندرة العنصر النسائي، وأن من المُرحب به وجود عناصر نسائية في صفوف الجيش، بل لأن لديها "حساً ثقافياً"، كما يُقال في الولايات المتحدة، وهو ما يميزها عن بقية الجنود، الذين تعلموا اللغة العربية في مقاعد الجامعات نظرياً دون أن يصقلوا معارفهم في الميدان.

إن كاتي بعد مكوثها وقتًا طويلا في وسط عربي، تستطيع أن تفهم وتشعر بأشياء لا يستطيع إدراكها مترجمون آخرون؛ لأنهم تعلموا لغة حديث بمعزل عن

سياقها الثقافي وتفتقر للأحاسيس الحقيقية التي تحملها مفردات اللغة. لذلك، لم تلبث أن تجد نفسها في العراق، تم تعيينها المترجمة الشخصية للقائد العام لقاعدة بغداد العسكرية، فإذا كان هناك وظيفة حساسة ومرموقة فهي هذه الوظيفة، خاصة بالنسبة لصغر عمرها.

كان عملها يكمن في مرافقة القائد في جميع تنقلاته، بما في ذلك الميدان في أثناء العمليات العسكرية. وينبغي عليها ترجمة أوامره وكلامه مع العراقيين، وتجهيز الوثائق الضرورية للمقابلات الثنائية، ومراقبة سير الترجمة التتبعية لمترجمين فوريين آخرين يعملون في مراتب أدنى إدارياً.

إن كاتي واحدة من الأشخاص النادرين الذين يتحدثون مباشرة مع العراقيين. فالجنود الآخرين لا يتجاذبون أطراف الحديث إلا نادراً جداً من شخص إلى شخص آخر من السكان. و ليس بإمكان أي جندي أن يتحدث يومياً بالعربية، ولا أن يتعرف على الشارع العراقي.

لهذا تجد كاتي مهنة الترجمة محفزة ومشوقة. فهي تتميز كثيراً عن زملائها لدرجة أنه طُلب منها دمج نخبة مغاوير العمليات الخاصة في العراق. كما سعت العديد من وكالات الاستخبارات الحكومية لتجنيدها معهم، وقدمت لها شركات خاصة عروضاً كثيرة، لكن دون جدوى.

إن كاتي رفضت أن تعمل أكثر مما مضى لأنها على طول معاشرتها اليومية للسكان المحليين، وجدت أن هناك روابط مشتركة بينها وبين العراقيين أكثر من العسكريين الأمريكيين. فهي تتطلع -كما هو حال العراقيين- إلى أن يسود السلام والأمن، إلا أنها لا تُطيق الثقافة الغربية و لا غطرستها. إذ تكره خاصة "الخلاعة

الموجودة في كل العراق، وانحلال الأخلاق المستمر في البرامج التلفزيونية". وهذا ما نقله عنها صحافي أمريكي كان في زيارة لقاعدة بغداد في عام ٢٠٠٤م.

في النهاية، رفضت كاتي قطعياً أن تعمل من جديد في صفوف الجيش الأمريكي، على الرغم من الملكات اللغوية التي تتمتع بها والعقود المذهلة التي أغريت بها. فهي لا تعتقد أن الحل العسكري هو أفضل مخرج للأزمة. وفي نهاية عام ٢٠٠٤م قدمت استقالتها على الرغم من أنها كانت برتبة رقيب أول، وبعد ذلك، قررت أن تغير درجتها: انتقلت من الجيش إلى الكنيسة لتصبح مبشرة، مثل ما كان والديها.

بعد مرور أربع سنوات على الحرب، صارت على قناعة بأن "كلام الرب وحده هو الذي ينقذ البشرية و يساعد النساء في العراق على أن يجدن الأمل". تريد نشر السلام والحرية ليس بالسلاح ولكن بالكلمة الطيبة. فقد تحولت من جندي محترف إلى مبشرة متطوعة. لكنه من غير المؤكد أن توفر "مهمتها الجديدة" الطمأنينة ولا السلام في المنطقة، لأن الفجوة الثقافية كبيرة جداً لدرجة أنها بحاجة إلى بذل المزيد من العمل، فحسن النوايا وحده لا يكفي.

مواطن الفجوة الثقافية

وقف العراقيون -في بداية الحرب- تجاه الأمريكيين موقف الشك والارتياب، وسخر الكثير منهم من موقف هؤلاء الجنود الذين وضعوا أقدامهم لأول مرة في بلدهم، وذلك قبل أن يسيء لهم "العراقيون" نتيجة سلوكهم الفظ، الذي لاينم عن تقدير واحترام.

إن هذا أمر واضح للعيان اليوم: الجنود الأمريكيون لطفاء ولكنهم سُذج وجهلة بالأعراف والعادات المحلية. فعلى سبيل المثال: هم لا يمنعون أنفسهم عن التصفير

للنساء المتحجبات، ولا عن الاستماع للموسيقى بصوت عالٍ جداً في سياراتهم المصفحة عند المرور من المساجد والأماكن المقدسة، ولا عن تقديم السجائر للمراهقين في شهر رمضان المقدس، إلخ. ومجمل القول، كل ما يقومون به من أعمال مقبولة كثيراً في العالم يُنظر لها في العراق على أنها تحريض علني، وهذه الأعمال لا يطيقها العراقيون البتة.

علاوة على ذلك، يبدو أن الجنود الأمريكيين مقتنعون بأن العراق الذي سمعوا عنه قليلاً بلد ناطق بالانجليزية منذ فترة الانتداب البريطاني. ولكن العراق في الواقع ليس في ذلك من شيء؛ حيث أصبح، خلال فترات بينية، حاملاً للواء العروبة والقومية العربية.

حينئذ فالسؤال المهم الذي يطرح نفسه: كيف بالإمكان توطيد الأمن في بلد ما دمنا لا نفهم سكانه؟ وكيف تنجح عملية نشر الديمقراطية إذا كان هناك العديد من الأفكار المسبقة والخاطئة من الجهتين؟

كان هناك الكثير من التقارير التي تتحدث عن مواطن الخلل التقني واللوجستي التي كان يعاني منها الجيش الأمريكي في العراق، ذلك ما أجبر إدارة بوش على رفع الميزانية العسكرية بشكل ملحوظ بين عام ٢٠٠٥م و ٢٠٠٧م. و في المقابل كانت هناك مشكلة أخرى قلما طُرقت رغم أنها في غاية الأهمية حيث تتعلق بالغياب شبه التام للمترجمين لمساعدة جنود التحالف في تعاملاتهم مع السكان العراقيين. إلا أنه اتضح أن هذا النقص جوهري، بل أساسي للجنود في العراق، ولمتابعة الأهداف العسكرية والسياسية في الميدان.

في الحقيقة، بدا حال الأمريكيين في العراق دون مترجمين فوريين شبيها بحال أعمى تائه في الصحراء، علاوة على أنه أصم أبكم. لتبسيط ذلك، نفترض أن الجنود

غير قادرين على أرض الواقع أن يعرفوا إذا كان مواطن عراقي يصرخ في ساحة السوق أنه يبيع خضروات أم أنه يحذر الناس من وجود انتحاري بينهم. لا سيما أن هذه القضية مهمة بحيث إن وجود المترجمين يعد أمراً رئيساً للعمليات العسكرية اليومية. بل حتى أعضاء الدوريات الأمريكية الذين يريدون تبادل المعلومات مع نظرائهم العراقيين غير قادرين على القيام بذلك بالشكل المطلوب في غياب المترجمين. وتكمن نقاط الضعف عند الأمريكيين في عدد المترجمين.

كشفت مجموعة من الدراسات لوضع العراق في تقرير كارتر هاملتون الذي نُشر في شهر ديسمبر عام ٢٠٠٦م عن أرقام مقلقة؛ فبعد ثلاث سنوات من وجود الأمريكان في العراق هناك فقط ٣٣ موظفًا من أصل ١٠٠٠ موظفٍ يعملون في السفارة الأمريكية في العراق هم من كان عندهم بعض المعلومات عن اللغة العربية، وكان يبدو من بينهم ٦ موظفين فقط يتحدثونها بشكل صحيح.

في عام ٢٠٠٥م، قدرت وزارة العمل أنه كان ينقصها ٦٥٠٠ مترجم لكي تستطيع القيام بإعادة بناء العراق على أكمل وجه. وعلى سبيل المقارنة، قد قدرت النقص بعدد المترجمين في أفغانستان بـ١٥٠٠ مترجم.

أمام هذه الحالة المثيرة للقلق، أوصت بشدة مجموعة دراسة وضع العراق بأن تقوم الحكومة ووزارة الدفاع ومدير الاستخبارات الوطني "بإعطاء أولوية كبرى لمعرفة لغات المنطقة وثقافتها".

وفي خضم الأحداث، قررت وزارة الخارجية الأمريكية في عام ٢٠٠٧م توظيف ٣٠٠ خبير في التواصل بين الثقافات، شريطة أن يتكلموا اللغة العربية بطلاقة، و ٣٠٠ خبير آخرين في عام ٢٠٠٨م. كما أوصى تقرير كارتير هاملتون الدبلوماسيين الذين يشغلون مناصب في منطقة الشرق الأوسط بتعلم اللغة العربية، وأن يحسَن الذين

يعرفون النذر اليسير من العربية من مهاراتهم التواصلية، وارتأى التقرير أن هذه المعرفة ستكون جوهرية لنجاح مهمتهم على أرض الواقع.

في الوقت نفسه، أطلقت وكالة الاستخبارات الأمريكية (CIA) عملية تشجيعية كبيرة من نوعها بهدف جذب الناطقين باللغة العربية الراغبين في العمل بالوكالة أو المشاركة في تأهيل موظفين آخرين. وتستهدف خاصة العرب المسلمين. غير أن الجيش، بالرغم من كل هذه الجهود، بقي تقريباً سيء الحظ في الميدان وفي بداية الحرب على حد سواء.

وهكذا فإن ١٣٠ جندي فقط من أصل ١٣٠,٠٠٠ ألف جندي فاعلون في الجيش الأمريكي هم من لديهم مبادئ في العربية تتيح لهم قراءة اللوحات وفهم ما كان يُقال في اللغة العربية التقليدية بصعوبة.

حتى هذا التاريخ، كان لدى القوات الأمريكية بشكل متوسط مترجم أو مترجمان لكل سرية (أي مترجم واحد تقريباً لكل ١٥٠ جندي). لكن لم يكن وجود المترجم بشكل دائم، وعامة ليس لدى الوحدات صغيرة الحجم (الأقسام التي تحتوي على ما يقارب الثلاثين جنديًا) أي مترجم، مع العلم بأن هذه الوحدات هي التي كانت تضطلع بالدور الرئيس لعمل الحماية الأمنية على أرض الواقع، وكانت في أغلب الأحيان على اتصال مع السكان المحليين.

ويشكو مستشارو الجيش الأمريكيون جميعهم وقوات الأمن العراقية، عند عودتهم من أداء المهمة، من نقص كبير في عدد المترجمين في أوساط الجيش. ويخلص الجميع إلى أمر مفاده استحالة القيام بعمل تأهيل أوإعادة إعمار فعلي في ظل هذه الظروف.

في القواعد العسكرية حيث يلتقي الأمريكيون والعراقيون، يتم التواصل بشكل لا بأس به، وذلك باستخدام الإشارات والإيماءات في محاولة يائسة للتعبير عن التعليمات المعقدة أحياناً والتي قد تتطلب شرحًا وافيًا باللغة العربية أو الإنجليزية.

وبالتالي، يعيش الطرفان في عالم لا وجود له. و بعد مرور بضعة أشهر على الإقامة في العراق، يصبح بإمكان الجنود الأمريكيين المكلفين بالحراسة التعرف من المذياع على كلمات مثل: "العراق"، و "القاعدة"، و"بغداد" في حين يسمع العراقيون الذين لا يفهمون كلمة واحدة إنجليزية من يناديهم بأسمائهم بأعلى صوته دون أن يعرفوا البتة سبب مناداتهم. إذن، تصبح عامة وشاملة لدى الجميع الصدفة والعشوائية.

سجل بعض الجنود الأمريكيين في مدوناتهم الشخصية على شبكة الانترنت أن لديهم انطباعاً أنهم في إحدى حلقات مسلسل Cosby show الذي كانت فيه الشخصية الرئيسة Cliff لا يفهم زوجته التي كانت تتكلم الإسبانية. وكان Cliff يتفاعل فقط عندما يسمع اسمه الخاص به : "نعم حبيبي". يؤكد الجنود أن الأخبار في المذياع تشبه سيلاً متقطعا من نوع "هذر، هذر، هذر، العراق، هذر، هذر، هذر، بغداد، هذر، هذر، هذر، ...".

في منطقة الأنبار السنية على سبيل المثال، كان هناك في المتوسط مترجم لكل كتيبة لقوات البحرية. لكن المشكلة تكمن في الكفاءة الفعلية لهؤلاء المرافقين الذين لا يمكن الاستغناء عنهم. وكان هؤلاء المترجمون يتكلمون الانجليزية بطريقة غير مفهومة وخاطئة ويتواصلون بصورة أساسية من خلال الإشارات مع الجنود. وقد أصبح الوضع مزريا لدرجة أن الضباط الأمريكيين كانوا يشبهون مترجميهم "ببندقية ذات

جودة عالية لا تطلق الرصاص المناسب[٢]". بطبيعة الحال، لا يتعلق الأمر فقط بوجود مترجمين، بل بوجود مترجمين أكفاء.

كان هذا النوع من التقصير يتجلى بوضوح عندما يكون هناك نقاش مع شيوخ القبائل، منٍ زعماء القرى المحلية الذين لا يمكن التملص منهم، إما لعرض برامج إعادة الإعمار المخطط لها، و إما لشرح أعمال الحماية الأمنية التي يقوم بها الجنود الأمريكيون، وهذا لتجنب الثورات المسلحة التي يقوم بها السكان. وفي مثل هذه الحالات، كان هناك شعور مرير بغياب وسيط مؤهل. لأن وجود مترجم يفتقر إلى الكفاءة قد يؤدي إلى نقيض الهدف المنشود. كان ثلثا سرايا الجيش تحتك بالسكان المحليين دون مساندة مترجم "الدوريات ونقاط التفتيش"، سواء بسبب نقص المترجمين أو عدم كفاءتهم، في حين أن المهمة الأولى لهؤلاء الجنود كانت بالفعل زرع الطمأنينة في قلوب السكان، وإقامة علاقات تقوم على الألفة مع جميع العراقيين.

في البداية، سعى الأمريكيون بشتى الوسائل لمعالجة هذه المشكلة على مستوى الكم والكيف على حد سواء، وذلك بتوظيف مترجمين محليين. ولكن سرعان ما اتضح أن أغلبيتهم لم يكونوا محل ثقة، إضافة إلى تعرضهم للتهديد وغالباً القتل؛ إذ كانوا يترجمون *ترجمة جزئية ومتحيزة* وكانوا ينقلون ما يحلو لهم، كما أنهم كانوا يقومون عمداً بترجمة خاطئة للتحريض على قرار عسكري يصب في مصلحتهم، ومصلحة أصدقائهم، أو مصلحة قبائلهم. والأمثلة في هذا المقام مفيدة لا تُعد ولا تُحصى، ولكن الوقت كان كفيلاً بأن يدرك الأمريكيون ذلك، و أن يسعوا إلى اتخاذ التدابير الملائمة لمعالجة ذلك. لكن بعد فوات الأوان.

---

[٢] الترجمة الدقيقة للتعبير هي: (بندقيه m١٦ لا تطلق رصاص عيار ٥,٥٦). المؤلف

تكشف هذه الصعوبة المسألة المحظورة التي تتعلق بأمانة الموظفين المحليين خاصة من بين مترجمي أهل البلد.

في بداية الحرب، قامت وزارة العدل بالبحث عن مترجمين عراقيين وعرب في كل نواحي الولايات المتحدة. لكن النتيجة كانت هزيلة: كان هناك فقط ٨ مرشحين من أصل ١٠٠٠ مرشح تم اختبارهم في عام ٢٠٠٣م، يتمتعون، كما يبدو عليهم، بالكفاءات الواجب توافرها لدى أصحاب المهمات التي تتم في الميدان.

من جهة أخرى، عندما يكون المترجمون أكفاء على المستوى اللغوي، فإن سيرهم الذاتية تثير، على الأقل، الاشتباه فيما يخص دوافعهم للوظيفة. فالبعض منهم كانوا يتكلمون العربية، لكن كان أفراد أسرهم يخدمون في الجيش الإسرائيلي، والبعض الآخر كانوا فلسطينيين، وكان من أفراد العائلة من يعيش في الأراضي المحتلة، إلخ. وكان يحرك أغلبيتهم حقد يفوق الوصف على الآخر ورغبة في انتقام علني. ويعد التدخل العسكري في العراق، بالنسبة للمترجمين، الفرصة التي يحلمون بها لتحقيق ما حرموا منه منذ عقود.

وكما بينت الدراسات التي قام بها مكتب التحقيقات الفيدرالي (FBI) أن بعض المترجمين كانوا يقرؤون باستمرار مجلات عن الجهاد على شبكة الانترنت، والبعض الآخر قد أرسل رسائل في بعض المنتديات للدفاع عن بن لادن أو بشكل شامل لتبرير اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر. ومجمل القول: إن القليل منهم من كان ذا مصداقية على الصعيد الأمني، و أيضاً فإن معظمهم غير جديرين بالثقة على الصعيد الإنساني؛ مما كان يحد بشكل ملحوظ من مجال إمكانات الامريكيين القائمين على التوظيف. غير أنه مقابل الشح وطلبات الجيش الطارئة، كان يجدر اختيار "الأقل سوءًا" من بين

المرشحين، من خلال عدد كبير من الإعلانات الدعائية. ولكن هذا كله لم يمنع من وقوع أخطاء لا تغتفر.

أضرار الارتجال

تتعلق واحدة من أسوأ أخطاء الكتابة التي نستطيع أن نذكرها عن هؤلاء الذين يلعبون بالنار بترجمة قطعة كتابية «KIA» مما نراه على بعض وثائق الجيش الأمريكي الإدارية، والمصحوبة عامة بتاريخ ومكان، فعلى سبيل المثال: "KIA ٢٣ نوفمبر٠٣، الموصل، العراق".

إذ اعتقد بكل بساطة بعض المترجمين الذين يختلقون الترجمة بأن «KIA» تتعلق بمعلومات مكتوبة على لوحة سيارة كورية الصنع من نوع «KIA» تسير في مدينة الموصل في العراق في شهر نوفمبر٢٠٠٣م.

في الواقع، ليس الأمر في ذلك من شيء. إنها قطعة كتابية توجد على جميع الملفات العسكرية وعلى كل اللوحات المعدنية للجنود الأمريكيين الذين ماتوا في أثناء عملية. إن الكتابة «KIA» ليست نوع سيارة مصنوعة في كوريا الجنوبية، بل هي اختصار للتعبير الأمريكي: " قُتل في أرض المعركة Killed in action".

من باب المفارقة، انتشرت الترجمة الخاطئة للقطعة الكتابية في تلك الفترة مثل نثار البارود، وذلك في ظل غياب التصحيح. ورأينا بعض "المترجمين العرب"، كما يطلقون على أنفسهم، مستائين من ارتفاع القوة التجارية لكوريا الجنوبية في العراق بفضل سياراتها KIA، مستفيدة من الاحتلال الأمريكي. ولم يساور أصحاب هذه العقول الكبيرة، في أي لحظة، الشك حتى في صحة ترجمتهم للاختصار.

فيما بعد استطعنا في أحد المنتديات على شبكة الانترنت التي يرتادها المغتربون العراقيون في الولايات المتحدة، قراءة مناظرات حادة، وآراء تقوم على المقارنة حول جودة السيارة KIA، إنها ببساطة مناظرات مستندة على ترجمات كلها لا أساس لها من الصحة. وأمام هذا الجهل المطبق، فإن الضحك خير جواب.

غير أنه منذ نهاية عام ٢٠٠٣م، دق الضباط الأمريكيون ناقوس الخطر؛ حيث إن النقص في عدد المترجمين الأكفاء كان بصدد إبطال كل الجهود العسكرية الرامية إلى إقامة الاستقرار والديمقراطية في البلد. وكان هناك القليل من المترجمين الفوريين ممن يؤدي على الوجه المطلوب العمل التعليمي الضروري لدى السكان المحليين، وكان القليل من المسؤولين من كان قادراً فعلاً على الدفاع باللغة العربية عن السياسة الأمريكية في القنوات التلفزيونية التي تتمتع بحظوة كبيرة في المنطقة. وحتى السفير الأمريكي في العراق لم يكن يتكلم كلمة واحدة عربية!

و مجمل القول: إنه بالرغم من حملة التوظيف العشوائية التي تشنها الحكومة الأمريكية لم يكن هناك ما يكفي من المترجمين الأكفاء لدعم الجهود العسكرية والدبلوماسية في الشرق الأوسط، ناهيك عن التقصير الواضح للعيان في مجال الكوادر البشرية. لأنه لا يكفي أن يستطيع الشخص لفظ بعض الكلمات بالعربية و يصافح لإقامة علاقات حميمة مع "الشركاء العراقيين". إن الأمر في الواقع يتعلق بـ"سلب القلوب والعقول"، وذلك بالدفاع عن الغايات الديمقراطية في منطقة تكون في غاية التشكك في الأمريكيين.

على المستوى العسكري الخالص، لا يكفي تعلم بعض الكلمات في لغة البلد. إن إتقان مصطلحات اللغة العسكرية سمة مطلوبة جداً في هذا السياق، خاصة من أجل القدرة على التعامل مع جيوش البلدين. في النهاية، فإنه من المناسب أن يكون

لدى المترجم دراية كافية بالثقافة القبلية وبمفاهيم يمكن الإفادة منها في تاريخ وديانة مختلف الطوائف التي يتكون منها من البلد.

بين الخيانة والمنفى

قبل الحرب، كان عدد العراقيين من الطائفة المسيحية، سواء كانوا كاثوليكيين كلدانيين أو آشوريين أرثذوكس، أكثر من مليون نسمة، أي تقريباً ٥٪ من سكان العراق.

كانت هذه الطائفة، المثقفة بالأصل، تشغل مناصب مرموقة كأساتذة الجامعة أو أطباء متخصصين، مما كان يمنحها الاحترام والحماية في عهد نظام صدام حسين.

كما أنهم تعلموا اللغات الأجنبية بشكل جيد منذ المرحلة الابتدائية، فإن أفراد هذه الطائفة كانوا يتبؤون عادة معظم وظائف المترجمين. وإن هذا التأهيل "على الطريقة الغربية" يوجههم مسبقاً بشكل طبيعي إلى وظائف تتطلب احتكاكاً مع الأجانب، خاصة في وزارة الخارجية. لذلك كان يُطلب منهم العمل في البعثات الدبلوماسية، وذلك قبل وبعد عام ٢٠٠٣م على حد سواء، وهذا لسوء حظهم.

و قبل حرب الخليج، كان معظمهم مترجمين في وزارة الإعلام والثقافة العراقية، أي لخدمة الإعلام والدعاية الرسمية. فقد كانوا يترجمون من اللغة العربية إلى اللغة الإنجليزية لصالح مسؤولي حزب البعث، الحزب الوحيد في السلطة إبان حكم صدام حسين.

بدأت مهنة بعضهم في عام ١٩٧٩م، عندما قامت الحكومة العراقية بإيفادهم إلى لندن لدراسة الترجمة الفورية شريطة تعهدهم بالعودة إلى البلد عند الانتهاء من الدراسة، ولذلك لخدمة حكومتهم و إدارتهم. وإذا لم ينفذوا ذلك، فيكون مصير

أفراد عوائلهم السجن بدلاً منهم، بمثابة عقاب لهم. بذلك، يعود القانون القبلي للظهور بأبشع صوره.

في عام ١٩٨٢م، كان العراق يستعد لاستقبال قمة دول عدم الانحياز المزمع عقدها في بغداد. وقد أرسلت الحكومة العراقية، تحسباً لهذا اللقاء، مجموعات من المترجمين المبتدئين من الطائفة المسيحية الكلدانية بغية إتقان ممارسة اللغة في بريطانيا العظمى، وفي روسيا، وفي أسبانيا، وفي فرنسا.

في عام ١٩٨١م، عند عودتهم إلى العراق بعد ثلاث سنوات من الدراسة، عملوا مترجمين في مختلف الدواوين الوزارية لاستقبال وتوجيه الوفود الأجنبية. وتم تعيين الأفضل من بينهم مترجمين فوريين لدى الأعضاء البارزين في الحزب الحاكم.

وكما يظهر، فإن من ضمن ما أُسند إليهم، إلزامهم بالمشاركة في كتابة صحيفة باللغة الانجليزية The Bagdad Observer، صحيفة يومية تعرض سياسة الحكومة في الخارج. كانوا كذلك يقومون بنشر ترجمات لمقالات مكتوبة في صحف مرموقة أجنبية، ويقومون بكتابة برقيات باللغة الانجليزية لأعضاء الحكومة.

بل إنهم أحياناً كانوا يُضطرون إلى القيام بتقديم ترجمات عاجلة وغير مألوفة، مثل ترجمة كتاب سلمان رشدي "الآيات الشيطانية" من الانجليزية إلى العربية في نهاية الثمانينيات.

كان ينبغي عليهم أن يقوموا بتقديم نسختين من الكتاب: واحدة للحكومة والأخرى لمكتبة صدام حسين الشخصية. وقد طلب هذا الأخير نسخة مترجمة عندما سمع آية الله الخميني يصدر فتواه بالحكم بالموت على صاحب "الآيات الشيطانية".

كان صدام حسين يرغب في الحصول على نسخته المترجمة خلال أسبوع واحد فقط. وكان ينبغي على مترجمي الحكومة القيام بهذه الترجمة إضافة إلى أعمالهم

المعتادة. وأقبل الجميع على العمل مكرسين وقتهم وجهدهم لإنجاز هذه المهمة المحفوفة دون شك بالمخاطر.

وقد زج بأحد المترجمين في السجن على الفور عندما أشار إلى استحالة تنفيذ العمل في الفترة المخصصة، ومكث فيه لوقت طويل. وبالتالي، سارع المترجمون الآخرون إلى تقسيم العمل بطريقة عادلة لترجمة الـ ٦٠٠ صفحة من رواية رشدي. وعملوا ليل نهار لإنجاز الترجمة في الوقت المحدد.

وتم الالتزام بالفترة المحددة خشية العقوبات المخيفة. غير أن النتيجة كانت بعيدة كل البعد عن الجودة. فكيف يُكتب لهذه الترجمة النجاح في حين أنها نُفِّذت تحت وطأة الضغوط والاستعجال؟ وكان من العسير قراءة العمل المترجم المكتوب بأساليب مختلفة ومتنوعة غير متناسقة أبداً, فخرج غير متجانس من الناحية الأسلوبية. وأدت استحالة التدقيق النهائي إلى خروج الترجمة على شكل عمل غير متجانس.

كانت هذه الأوامر استثنائية بالطبع. إلا أن العمل كان دون شك محفوفاً بالمخاطر. فلم يكن المترجم أبداً بمنأى عن تقلبات المزاج التي قد تقوده إلى فقدان الحياة بسبب ترجمة خاطئة لكلمة أو نسيان مصطلح. ألم يطلق صدام حسين النار على أحد وزرائه لأنه تجرأ أن ينظر إلى ساعته عندما كان الديكتاتور يلقي خطاباً طويلاً ومملاً!

كان المترجمون الفوريون المسيحيون يعرفون مدى المخاطرة المشؤومة التي تعرض لها أحد أبناء جلدتهم مع عدي الابن الأكبر لصدام حسين الذي كان يرأس في ذلك الوقت اللجنة الأولمبية العراقية. وقد أُنتدب زميلهم للعمل مترجماً فورياً لعدي الذي كان يستقبل وفداً يابانياً.

في عام ١٩٩١م وقبيل حرب الخليج، حيث كانت النفوس مهيجة بفعل قومية متفاقمة. بالتالي خاض عدي خطبة مسهبة نارية عن عظمة العراق مصرحاً بأن مئات

الطيارين العراقيين على استعداد للطيران لقصف العواصم الغربية، ولم تكن رغبتهم بأقل في أن يصلوا إلى ما وصل إليه الطيارون اليابانيون في الحرب العالمية الثانية.

ومن سوء حظ المترجم الذي كان يقوم بالترجمة آنذاك أنه استخدم كلمة "انتحاري- كاميكازي[٣]" ليصف الطيارين العراقيين الذين تكلم عنهم ابن صدام. فالمترجم كان يريد، بطبيعة الحال، توضيح المعنى المنشود للمخاطبين اليابانيين. فهذا خطأ قاتل. إذ كاد المترجم أن يفقد حياته بسبب هذا الاختيار المشؤوم للمصطلح. والأدهى والأمر من ذلك، أن المراجع الذي أكد هذه الترجمة فيما بعد خضع لاستجواب أمني وتعرض للضرب خلال عدة أيام. وانتهى به الأمر تحت وطأة التعذيب بقبول أن الترجمة المناسبة كانت فعلاً "شهيدًا" وليس "انتحارياً".

لم تكن هذه إلا واحدة من أخطار المهنة التي لا تُعد ولا تُحصى. في أثناء حرب الخليج، طلب النظام الحاكم من الكثير من أفراد الطائفة المسيحية في العراق مرافقة الصحافيين الأجانب في بغداد مرشدين سياحيين و مترجمين، وذلك لكي يعرضوا لهم الأماكن التي وقعت بها الصواريخ والقنابل الغربية.

وبالرغم من توخي المترجمين الحذر، اُتهم عدد كبير منهم بالإيحاء في ترجماتهم إلى احتمالية أن تكون الأماكن المقصوفة مكاناً لصناعة أسلحة دمار شامل مثل مصانع تحويل الحليب أو أيضاً إنتاج المساحيق. بعضهم تعرض للضرب حتى لقي حتفه لكونهم ترجموا بنزاهة وأمانة الردود الغامضة المُصوغة بطريقة سيئة على ألسنة القادة العراقيين موجهه للمحققين والصحافيين الغربيين.

---

[٣] نسبة إلى الطيارين اليابانيين الذين كانوا يقودون طائرات محملة بالمتفجرات، إذ كانوا ينقضون بها على هدف عسكري انقضاضاً انتحارياً. المترجم

قرر الكثير من المترجمين الفرار من البلد لكي لا يكونوا كبش فداء يحكم عليهم بالإعدام عبرة لغيرهم. وبذلك، قام المكلفون بالاستجوابات بإخبار العديد من أفراد الطائفة الكلدانية، خاصة المترجمين بأنهم في القائمة السوداء للأفراد غير المرغوب بهم. فلملموا شملهم ولاذوا بالفرار إلى الأردن، و من هناك، إلى الولايات المتحدة حيث طلبوا اللجوء السياسي.

منذ ذلك الوقت، قام هؤلاء المترجمون القدامى بتدريس العربية في معهد اللغات التابع لوزارة الدفاع في مدينة مونتيري الواقعة في ولاية كاليفورنيا. عند احتلال العراق في عام ٢٠٠٣م، لحق بهم مترجمون آخرون ليقوموا بتدريس اللغة الكردية والفارسية.

إلا أن ظروف الحياة لهذه الأقلية تدهورت في وقت الاحتلال الأمريكي الذي بدأ في عام ٢٠٠٣م. ولم يكن المسيحيون وحدهم ضحايا الاختطاف البشع بسبب وضعهم المالي الأفضل عامة من باقي السكان الذين لا يجدون قوت يومهم، بل كانوا أيضاً مرغمين على أن يعملوا مترجمين للأمريكيين، وحولهم عملهم لخدمة "العدو" بين ليلةٍ وضحاها إلى "عملاء" و"خونة"، وباختصار إلى أهداف أولية.

وفي أقل من أربع سنوات، لاذت ربع الطائفة المسيحية بالفرار من العراق، لأن هذه الطائفة تعرف جيداً ما تحمله صفة "الخائن" من معنى في العراق منذ أن خلق الله الأرض ومن عليها. ففي زمن صدام حسين، عندما يصنف فرد من أفراد العائلة على أنه خائن، كان كل أفراد العائلة يدفعون الثمن غالياً وتأتي الأطفال في مقدمتهم. وقد عاش الكثير من أفراد الطائفة المسيحية في العراق هذه التجربة المريرة التي آلت بهم إلى الهروب من البلاد.

بعد سقوط صدام حسين، خاف العراقيون أن يقعوا كبش فداء في أيدي الأصوليين المسلمين الذين كان يعزز عملهم الاحتلال الأمريكي، ناصبين أنفسهم محبين لوطنهم وحماة للدين. وهرب البعض منهم إلى فرنسا، والبعض الآخر إلى استراليا، ومنهم أيضاً إلى السويد أو هولندا. فلم يكن أحد يرغب في دفع فاتورة الحرب الأهلية في العراق.

لكن في شهر نوفمبر عام ٢٠٠٣م، عاد عدد كبير من العراقيين المسيحيين أدراجهم لأول مرة إلى العراق بعد ما هجره بعضهم منذ عام ١٩٩١م. وعندئذ، وجدوا أسرهم في حالة يرثى لها بسبب تعرضهم لحالات انتقام من النظام بعد رحيلهم: فكم من صهر أقيل من عمله بسببهم، وكم من أخ زج به في السجن لسنوات عديدة، وكم من منزل وضع تحت المراقبة أو صادره النظام بالكامل، وكم من مستودع للعقاقير قد أُغلق، وكم من الوظائف الممنوعة، وكم أُقصي فرد من أفراد الأسرة. ناهيك عن وصف حالتهم النفسية وروح الضغينة التي استهلوا بها مهمتهم الجديدة في العراق، بوصفهم "مغتربين" هذه المرة.

تعاسة المغتربين

في الثمانينيات خلال الحرب الإيرانية- العراقية، لاذ مئات العراقيين بالفرار من بلدهم طمعاً في اللجوء إلى الولايات المتحدة. فهم رحلوا دون أن يكون هناك أمل فعلي في العودة، على الأقل حال بقاء صدام حسين في السلطة. وبعد حرب الخليج الأولى عام ١٩٩١م، انضم لهم عراقيون آخرون خشية أن يقعوا ضحايا هزيمة نكراء للنظام.

وفي غضون ذلك، "تأمرك[٤]" هؤلاء العراقيون وعاشوا مثل أي مواطن عادي في بلد العم سام. غير أنهم في قرارة أنفسهم كان يهزهم الشوق لبلد رحلوا منه رغماً عنهم.

في عام ٢٠٠٣م، عندما سنحت فرصة العودة إلى العراق لم يترددوا لحظة واحدة. كانوا مستعدين لخوض المغامرة، حتى لو عادوا على أنهم مكملون للجيش الأمريكي المحتل لبلدهم الأصلي دون موافقة الأمم المتحدة. وأمام هذه الحالة الشعورية، كان الحنين إلى الوطن أقوى من كافة الاعتبارات السياسية.

وقد جهز بعضهم سلفاً قائمة المترجمين الملقبين بالجيل الأول الذين تم الاستعانة بهم خلال حرب الخليج. وبالتالي، بعثوا إلى العراق في بداية عام ٢٠٠٣م ليستفيد الشباب من خبرتهم. في غضون ذلك، حصلوا على الجنسية الأمريكية خلافاً للمجندين الذين لحقوا بهم، فهم كانوا محل ثقة وإجلال الجنود الأمريكيين.

كما أن هؤلاء المترجمين العراقيين والأمريكيين في نفس الوقت يتقاضون رواتب أفضل بكثير من زملائهم الذين وصلوا بعدهم إلى العراق، بينما ترجماتهم بعيدة كل البعد عن التميز. فبسبب عيشهم في الولايات المتحدة لما يقارب ١٥ سنة، فقد السواد الأعظم منهم جزءاً كبيراً من مهاراتهم اللغوية و من معرفتهم بالميدان. وعلاوة على ذلك، فهم لم يسعوا للحفاظ على مؤهلاتهم اللغوية، فقد تفردوا لمهن أخرى لها ريع مادي أكثر بكثير من الترجمة في وقت السلام، مثل سائق تاكسي، وعامل توصيل بيتزا أو صاحب مطعم في أحسن الأحوال.

وعندما عادت لمهنة الترجمة أهميتها وارتفاع عائدها من جديد بفضل الحرب، ارتدوا لباسهم اللغوي مقدمين أنفسهم على أنهم "لغويون"، وتبعوا الجيش الأمريكي

[٤] نسبة إلى أمريكا. المترجم.

إلى منطقة قد رحلوا منها على مضض للمرة الثانية في بداية التسعينيات. وعلى غرار العسكريين الذين كانوا يعاضدونهم، كان ينتاب هؤلاء المترجمين شعور بأن المهمة لم تنته خلال حرب الخليج وقد عادوا في عام ٢٠٠٣م "لينهوا مهمتهم" وذلك بإسقاط نظام صدام.

في بداية الحرب، كانوا يتقاضون على الأقل خمسة أضعاف زملائهم الذين لا يحملون الجنسية الأمريكية، أي ما بين ٥٠٠٠ دولار و ١٠,٠٠٠ دولار شهرياً. ويرتفع راتبهم شيئاً فشيئاً كلما اشتد وطيس الحرب، دون سد الفجوة بين المترجمين الذين حصلوا على الجنسية الأمريكية والآخرين، بل على العكس تماماً، كانت تتزايد. وكان هذا ثمن الأمانة والشرف بالنسبة للمسؤولين عن التجنيد. غير أن الخبرة الميدانية تركت لهم بعض المفاجآت. وفي الماضي، عمل جلهم مترجمين فوريين في قاعدة غوانتانامو في كوبا للمساعدة في استجواب المقاتلين العرب المؤيدين لحركة طالبان. وإذ كان ينوي الكثير منهم العودة إلى العراق لمحاربة القاعدة و ممارسة نفس العمل الذي كانوا يقومون به في غوانتانامو، وهي على غرار استجوابات المشتبهين بالإرهاب.

بمجرد وصولهم، أصابت بعضهم صدمة حقيقية حين اكتشفوا التغير الجذري الذي طرأ على العراق منذ رحيلهم. فقد اختفى جيل آبائهم تقريباً، حاملاً معه كافة المعالم الاجتماعية لطفولتهم و شبابهم. ناهيك عن القول بأن أحياء المدينة في الثمانينيات لا تمت بأي صلة للمدينة الجديدة التي تطورت منذ ذلك الحين سواء في بغداد أو في أي مكان آخر.

في عام ١٩٩١م، هرب البعض الآخر من بلدهم، على إثر انتقام الثورة الشيعية العنيف. وفي عام ٢٠٠٣م، عادوا أدراجهم إلى البلد بمعية الجيش الأمريكي مفعمين بخليط من التخوف والضغينة. فلم يكونوا مدركين حق الإدراك أنهم سيعودون ليأخذوا

ثأرهم من نظام صدام حسين، وذلك بمساعدة الأمريكيين على إنهاء العملية التي اندلعت خلال حرب الخليج، ولكنهم خاضوا المعركة باندفاع مفرط.

أُرسل في البداية جل المترجمين العراقيين الذين يحملون الجنسية الأمريكية إلى الكويت ومن ثم إلى قطر لترجمة وثائق عسكرية في القواعد الأمريكية في هذين البلدين. وبعد ذلك، عندما ظن الجيش الأمريكي أنه سيطر على الوضع في العراق، تم إرسال المترجمين الشيعة إلى البصرة الواقعة جنوب العراق، والمترجمين الأكراد إلى كركوك الواقعة في الشمال. وكان هناك القليل من المترجمين العراقيين السنة. فأفراد الطائفة السنية كانوا يمدون أكبر الكتائب المتمردة التي فقدت السلطة بسقوط نظام صدام حسين.

في ظل هذا الصراع المبني على المصلحة الطائفية، فإن أكثر من عملوا كانوا هم المترجمين المغتربين المسيحيين، سواء كانوا آشوريين أم كلدانيين، كان بعضهم يتكلم الآرامية لغة بلاد النهرين القديمة. وهم يتقنون في ذات الوقت العربية والإنجليزية، وقد اختار معظمهم التعيين في بغداد، إذ لم يعد هناك ما يربطهم بأي مكان آخر في العراق، على عكس الطوائف والأعراق الأخرى. حتى حي الدورة الواقع جنوب بغداد والذي يُعد الحي التاريخي للطائفة الآشورية قد تعرض للقصف بالهاون ودمرت بالكامل الكنيسة على إثر تفجير انتحاري لسيارة مليئة بالمتفجرات.

كان جميع هؤلاء المترجمين أشد قرباً للجنود الأمريكيين من أبناء جلدتهم العراقيين الذين يعرفون مع ذلك الواقع الجديد للعراق أفضل منهم. وكان كل المترجمين يشعرون بالحنين إلى الوطن، مثلما هو الحال تماماً عند الجنود الأمريكيين، لأنهم تركوا زوجاتهم وأطفالهم هناك في الولايات المتحدة، ولم يستدلوا في البلد

تقريباً على أي من الأماكن القديمة، ولا ما يستدلون به على عوائلهم ولا أصدقائهم، ولا أيضاً على عشائرهم أو قبائلهم.

وبعيشهم كلياً على الطريقة الأمريكية، فقد أضاعوا حتى ردود الفعل التي تعد من أساسيات الحياة اليومية في مجتمع شرقي تسود فيه القبَلية. وعندما كانوا يرفضون مد يد العون والمساعدة لهذا المجتمع التقليدي المرتكز على تقاليده، فهم كانوا أيضاً أكثر عنفاً في تعاملهم مع السكان المحليين من الجنود الأمريكيين أنفسهم، مما أدى إلى رفض عنيف وإدانة ليس لها مثيل للغتهم القاسية وسلوكهم المنحرف. كان العراقيون يكرهونهم لأنهم كانوا أمريكيين أكثر من الأمريكيين ذاتهم. وبعضهم أثر في عقول الناس.

المترجم والديكتاتور

اسمه عدنان، ظهرت صورته في جميع أرجاء العالم بجانب الديكتاتور العراقي السابق صدام حسين في أثناء اعتقال القوات الأمريكية لـ"صدام حسين" في شهر ديسمبر ٢٠٠٣م.

وهو عراقي الجنسية، يبلغ من العمر ٤٦ سنة، من مدينة الناصرية، أبصر النور في بغداد. لاذ بالفرار إلى الولايات المتحدة في عام ١٩٨٠م لكي لا يشارك في الحرب ضد إيران وهي الحرب التي أعلنها صدام في ذلك الوقت لإخماد "الثورة الإسلامية" التي شنها الخميني، بمباركة الغرب ودعمه غير المحدود.

واستوطن في أمريكا في مدينة سانت لويس، وتعلم الانجليزية وحصل فيما بعد على الجنسية الأمريكية. وعاش خلال سنوات مواطناً أمريكياً حياة هادئة خالية من الأحداث والنزاعات. غير أنه عندما علم في الولايات المتحدة بقرب اندلاع الحرب ضد

العراق، عينه الجيش الأمريكي "لغوياً" لكي يستطيع مساعدة بلده في التخلص من الديكتاتورية. ووصل إلى العراق بعد شهر تماماً من سقوط بغداد في شهر أبريل عام ٢٠٠٣م، وعمل مترجماً فورياً في إحدى وحدات القتال المشاركة في مناطق السَنة.

وانقلبت حياته بعد انقضاء عدة أشهر عندما التقى بمحض الصدفة أحد حراس صدام حسين القدامى الذي أخبره، وهم يتناولون الشاي، عن المخابئ السرية للرئيس، خاصة عن "البئر" الذي قام الرئيس شخصياً بحفره لنفسه قبل سنوات من ذلك الوقت في مزرعة معزولة خارج مدينة تكريت.

وعندئذ، سارع عدنان لنقل هذه المعلومة لقائد وحدته الذي احتجز على الفور الحارس السابق لصدام حسين ليتحقق من صحة كلامه. وبالتالي، توصلوا بسرعة إلى مزرعة تكريت في مساء يوم سبت في الساعة الثامنة تقريباً. ولم يخطر في مخيلة أي شخص العثور في مثل هذا المكان على واحد من أعظم رجال المنطقة في ذلك الوقت. غير أنه كان فعلاً هناك مختبئا في أعماق بئر جاف.

وعلى قناة CNN الأمريكية، قام عدنان بسرد ما حدث معه ذلك اليوم تحديداً، الموافق ١٣ ديسمبر ٢٠٠٣م.

وكان يرافق عدنان وحدة القوات الخاصة الأمريكية وقد حدد البئر الذي كان صدام مختبئاً به، فهو بئر مغطى بكومة من أغصان الشجر والنفايات. وشرع مغاوير القوات الخاصة بإطلاق النار في البئر لـ "تنظيفه". ولكن صدام حسين، الذي لم يكن يعرف ماذا يحدث، صرخ بأعلى صوته: "أوقفوا إطلاق النار! أوقفوا إطلاق النار! سوف تقتلونني!".

وكان عدنان هو الذي نقل أمر صدام حسين بالخروج من جحره. وعندما أخرج الجنود الهارب المطلوب في العراق من مخبئه، كان شكله متغيرًا بسبب لحيته الطويلة

ولباسه الرث. وكان عدنان هو من كان متأكداً بأن هذا فعلاً هو صدام حسين. ونعرف المحادثة التي جرت بين الرجلين والاتهام "بالخيانة" على الملأ الذي لازم المترجمين في العراق.

"ما اسمك؟" المترجم الفوري يسأل الديكتاتور السابق

"أجب! ما اسمك؟" يصرخ المترجم

"صدام. صدام حسين"

وطلب الضابط قائد الفرقة من المترجم الفوري ترجمة كلامه:

"إن السبب وراء مجيئنا هنا، هو أن الرئيس بوش أرسلنا في طلب البحث عنك"

"عني أنا! أنتم بالنسبة لي لا شيء يذكر، هذا ما رد به الديكتاتور السابق"

ومن ثم، وجه صدام حسين كلامه للمترجم الفوري، متعرفاً على لكنته البغدادية:

"متى رحلت من بغداد؟" يسأله

"قبل ثلاث وعشرين سنة"

"وتعتقد أنك مازلت عراقياً؟ أنت لست عراقياً!"

"هذا بسببك، ابن...." هذا ما قاله المترجم الفوري للديكتاتور السابق الذي أثّر في نفس المترجم الفوري وهنا تألم المترجم تألماً شديداً.

"لو كنت رجلاً، لكنت قد قتلت نفسك بإطلاق رصاصة في رأسك!" مسترسلاً بالحديث متوجهاً بالكلام لصدام حسين

"أنت لست إلا خائناً!" خائناً، هذا ما قاله إذن الديكتاتور السابق، الذي تلقى على الفور لكمة في الوجه بمثابة رد.

واستشاط عدنان المترجم غضباً لأنه لم يتصور يوماً من الأيام أن يوصم بالخيانة للخدمة التي كان يسديها. وكان مقتنعاً، أسوة بآلاف العراقيين الآخرين، باشتراكه في تحرير بلده من الطغيان والاستبداد. إنه كان مخطئاً. وسوف يعلم آخرون ذلك بدفعهم الثمن.

المترجمون المحليون

تتراوح أعمار معظم المترجمين العراقيين المرافقين للدوريات الأمريكية بين ٢٥ و ٣٠ سنة. فهم حملة شهادات في تخصص اللغة والأدب الانجليزي من جامعات مختلفة في العراق، ولكن الكثير منهم خريجو جامعة الموصل والجامعة المستنصرية في بغداد.

وفي "العراق الجديد" الاسم الذي أطلقه الرئيس الأمريكي في عام ٢٠٠٣، وجد هؤلاء الطلاب فرصاً للعمل مترجمين في مدرسة شرطة العاصمة. وكان البعض يترجم من اللغة الانجليزية إلى اللغة العربية كتب دليل تدريب المجندين الذين كانوا في مرحلة التأهيل. وكان البعض الآخر يقوم بكتابة مقالات لنشرها في صحف محلية، بدعم مالي من الأمريكيين. وكان يفترض أن تقوم الصحف بنشر الكلام الديمقراطي المفيد وأن تكون مضرب مثل لصحافة حرة. غير أن كل هؤلاء الشباب العراقيين سرعان ما اتهموا بالخيانة وهُددوا بالقتل من قبل جماعات الثوار. حيث كانت هذه الجماعات تعدهم عملاء خونة يعملون بالمجان لحساب قوات الاحتلال الامريكية.

وهكذا تتكرر عمليات الترهيب: حين تبدأ جماعات الثوار بغربلة المنزل من الرصاص، ومن ثم ترسل رسالة تحذير، وبعد ذلك تسجيل فيديو لاختطاف زميل أو

فرد من أفراد العائلة، وأخيراً تسجيل فيديو لإعدام لا تطاق مشاهدته. وإذا لم تكن هناك نتيجة من ذلك، يقوم الثوار بمهاجمة الفرد واعتراض طريقه عند توجه للعمل، أو بمناسبة زيارة عائلية أو فسحة بين أصدقاء. وعقوبة الخيانة الإعدام بسكين بارد، يتم تصويره بكاميرا فيديو على شكل مخطط كبير وينشر على الملأ ليكون عبرة للآخرين.

في ظل هذه الأعمال الوحشية، لم يبقِ أمام الكثير من المترجمين العراقيين إلا البقاء في منازلهم، متشبثين بسلاحهم الكلاشنكوف متمنين أن تنساهم جماعات الثوار الذين يتمتعون لسوء الحظ بذاكرة قوية. وأحياناً، عزلتهم الإجبارية والهوس الذي يتبع ذلك يجعلهم فعلياً مجانين.

يختار بعض المترجمين المتزوجين الهروب وأُسرهم من المناطق الأكثر عرضة للهجوم إلى مناطق يُفترَض فيها أن تكون أكثر هدوءًا وأكثر سلاماً. ولكن عندما يكونون برفقة زوجاتهم وأطفالهم، فإنه يصعب عليهم أن يجوبوا شوارع البلد لوقت طويل، أو أن يلفتوا الانتباه إلى أنهم لائذون بمكان إقامة جديد. وبالتالي، ينتهي بهم المطاف بالعودة إلى مدينتهم مسقط رأسهم، ويصبحوا مجدداً عرضة لعقاب جماعات الثوار. وأحياناً لا يستطيعون العثور على منازلهم التي أقام بها لاجئون آخرون في غيابهم قادمين هم كذلك من مناطق أخرى في العراق على أمل التملص من سرايا الموت التى تجوب البلد بحثاً عن الفارين.

ولحماية هويتهم، يُطالب جميع المترجمين بعدم إظهار أسمائهم في أي مكان، ولا على تعريف الراتب، ولاعلى قائمة الموظفين، لأن عند جماعات الثوار، يساوي التسجيل على قائمة موظفي الحكومة أو مؤسسة تابعة للأمريكيين حكماً بالموت معززًا بالإثبات. وهناك أمثلة لا تُعد ولا تُحصى لهذه الإثباتات معروضة كأنها نصب تذكارية في أثناء إعدام عصابات الحرب للرهائن. وبالنسبة للعراقي، كل علامة تميز علاقته مع

مؤسسة لها علاقة مع قوات التحالف هي مرادف لخطر التعرض للموت، خاصة الزي سواء كان مدنياً أم عسكرياً.

وبالرغم من إدراكهم الذي جاء بعد فوات الأوان، نفر الأمريكيون من دفع رواتب لأفراد ليس لهم أثر ملموس. فالأمريكيون يخافون من تمويل أفراد متسللين لنفس هذه الثورة المسلحة يخشونهم ويحاربونهم سدى منذ سنوات. وبالإضافة إلى ذلك، فإن هناك حالات واضحة لاختلاس السلطات العراقية الأموال أو ميليشيات تابعة لبعض الوزارات الحساسة تقوم، علاوة على ذلك، بترسيخ مخاوفهم وشكوكهم المشروعة.

لذلك، ينتهي المطاف بمعظم طلاب اللغات بسلك طريق المنفى الذي غالباً ما يكون نحو بلاد أوروبا الشمالية حيث يكون حق طلب اللجوء أكثر مرونة وأكثر نفعاً. ويقومون بذلك عن طريق النادي الدولي لمنظمة Le PEN، وهي منظمة غير حكومية تساعد الكتاب المضطهدين وتسعى لحمايتهم وذلك بتسهيل خروجهم من البلد، مروراً خاصة بالأردن الذي يعد الحليف الأكبر للأمريكيين في المنطقة.

وبمجرد تخلص بعض الناجين من الخطر، فهم يعترفون - بنزاهة- بعدم استطاعتهم أن يكونوا أمناء ونزهاء مع الأمريكيين، وبالرغم من كل هذا يعدونهم غُزاة ومحتلين لبلدهم. في الواقع، ندرك أنهم يشاطرون جماعات الثوار وجهة النظر ذاتها ولكن ظروفهم المعيشية لا تسمح لهم بالالتحاق "بالمقاومة" العراقية.

في بلدهم بالتبني، يكتشفون المكانة التي يتمتع بها المقاومون بشكل عام ويشرعون في تمني مصير فدائي وبطولي قد يتيح لهم أمام أبناء جلدتهم تكفير خطايا سلوكهم السابق بصفتهم "عملاء".

بالتالي، يقرر البعض الدخول في المقاومة السرية لشبكات دعم الثورة المسلحة، بل حتى يقرر بعضهم العودة كلياً عن طريق الانضمام لصفوف الجماعات المسلحة، ويرون أن الموت "مقاوماً" خير من العيش بدور "عميل".

انطلاقاً من شعور بعض الناجين بالغيظ وبالذنب، لا يتوانى بعضهم عن الانقلاب حتى على الذين أنقذوهم والذين ينظر لهم، منذ ذلك الحين، على أنهم المسؤولون الفعليون عن نفيهم وعن كل المصائب التي حلت بهم. والنور الذي يظن ضيوفهم رؤيته في نهاية نفق الحرب، لم يعد بالنسبة لهم إلا بداية كابوس الذاكرة، لكونهم يحملون دائماً، حسب اعتقادهم، "قناعاً" لا يطاق.

قناع الخيانة

في بداية الاحتلال الأمريكي، كان يُطلق تبجحاً وتغنجاً على الشباب المترجمين العراقيين "باشا". وقد التحقوا للعمل مترجمين فوريين للقوات الأمريكية عند حواجز الطرقات وفي أثناء عمليات تفتيش البيوت بحثاً عن أسلحة محظورة. وعند العراقيين، يمثل المترجمون رمزاً فعلياً للتواطؤ والخيانة.

كان دورهم حساساً جداً وخطيرًا عند نقاط التفتيش التي تعبرها خاصة حافلات صغيرة تقل نساء شابات بشكل عام أخوات وزوجات جيرانهم في الحي. فكانت هناك مخاطرة كبيرة بتفتيش النساء العراقيات دون أن يتعرضوا لحالات انتقام فورية من قبل أسرهم أو عشائرهم.

لاسيما أن هؤلاء الباشوات الذين ذاعت شهرتهم تلقائياً يستغلون وظيفتهم ليتحرشوا ببعض الفتيات عند الحواجز الأمنية أمام نظرات الجنود الأمريكيين المتواطئة الذين كان الوضع يسليهم خير تسلية. لكن هذا كان يجعل الوضع متفجراً وكان ينجم

عنه غالباً عمليات تفتيش عن الهوية بشكل غير مبرر، وذلك بمواجهات مسلحة شاملة "للدفاع عن الشرف".

غير أن التعليمات المعطاة للمترجمين، هؤلاء "المتفننين بالكلام"، كانت بصورة رئيسة هي الحرص على ألا يقوم الجنود الأمريكيون بإشعال نار العداء والكراهية بانتهاك المحظورات الثقافية المترسخة ترسيخاً قوياً في المجتمع العراقي، دون قصد. جهد يضيع هباء منثوراً.

بعد مرور عدة أشهر على انتشار جيوش التحالف، أُجبر المترجمون على إخفاء هوياتهم عند ممارسة مهام عملهم لتفادي عمليات الانتقام والثأر.فهم أصبحوا رجالاً "مقنعين" يسميهم الجنود الأمريكيون "القناع"، إشارة إلى فيلم حقق نجاحاً في شباك مبيعات التذاكر تغير الشخصية الرئيسة فيه هويتها وطبعها بمجرد وضعها قناعاً بدائياً على الوجه.

تشكل في البداية هذه "الأقنعة" قائمات من الأسماء. إذ تقوم كل مجموعة من الرجال المعتقلين أو المستجوبين بإعداد قائمة باللغة العربية وأخرى باللغة الانجليزية يستخدمها الجنود والقادة. غير أن هؤلاء القادة يتوصلون بشق الأنفس إلى نطق الأسماء، حتى لو كانت مكتوبة بالإنجليزية، وغالباً ما يخلطون بين اسمين قريبين كل القرب من بعضهما لكنهما مختلفان تماماً مثل: «Mohamed» و«Ahmad» و«Hamed» و«Mhamed» و«Hamdi» و«Hamoud» و «Mahmoud»، إلخ. علاوة على أن هذا مسيء لدرجة أن المشتبه بهم لا يميزون أنفسهم غالباً إلا من خلال اسمهم الثالث: (Mohamed ben Hamed ben Mahmoud). إنه حقاً عمل شاق للعسكريين المكلفين بالتحقق من الهوية أو الذي يقومون باعتقالات عنيفة.

وبعد ذلك، يقوم هؤلاء المترجمون المقنعون بترجمة أوامر الجنود الأمريكيين، خاصة في لحظة فرز المشتبه بهم: (صباح الخير)، (ما اسمك؟)، (من أي مدينة أنت؟)، (لماذا أنت في بغداد؟)، إلخ. حاول العسكريون جاهدين تعلم مبادىء المحادثة في اللغة العربية لكي يتدبروا أمورهم بأنفسهم في الميدان، غير أن هذا كانت له نتائج، على أقل تقدير، مخيبة للآمال. فإما يكون نطقهم غير مفهوم كلياً، وإما يثير ضحك وسخرية العراقيين الذين يخاطبونهم، مما يقضي على التأثير الردعي لوجودهم. وفي بعض الحالات الحساسة، يتحول ذلك إلى مأساة. وبالتالي، فإن أصحاب الرتب العليا العسكرية يفضلون اللجوء باستمرار إلى المترجمين بسبب أن هناك مخاطر أخرى تشكل خطورة أكبر من سخرية العراقيين، لأن تلك السخرية، كما نعرف، لم تقتل قط أي شخص.

في النهاية، يقوم المترجمون الفوريون المقنعون بالتعرف على الأفراد خلال التفتيش عن إثبات الهوية. وبما أن الجنود الأمريكيين لا يمكنهم البتة قراءة مضمون بطاقة الهوية الوطنية والجواز العراقي، فمن شبه المستحيلات التحقق من أن الشخص الذي يبرز بطاقة الهوية هو فعلاً الشخص المطلوب أو بكل بساطة الشخص الذي يدعي ذلك. وبشكل خاص، مع اجتياح موجة اغتيالات المدنيين في بغداد، أصبح من السهل انتحال هوية شخص ما، ناهيك عن تزوير بطاقات الهوية التي أصبحت في غضون أشهر تجارة رابحة لأنها تنقذ حياة الشخص في كثير من الحالات خاصة عند نقاط التفتيش المتمركزة بين الأحياء المنافسة أو خلال الحملات المفاجئة التي تقوم بها الميليشيات من الطائفتين السنية والشيعية. ولتفادي أخطاء الجنود الأمريكيين التي لا تُعد ولا تُحصى، فالمترجمون المقنعون هم من يقومون - في كنف حماية العسكريين الأمريكيين- بحملات التفتيش عن الهوية التي يأمر بها أصحاب الرتب العليا أو

السلطات. لكن هذا يمنحهم بالعكس سلطة مطلقة على العراقيين الآخرين تقضي بحياة أو ممات في بعض الحالات. وبهكذا، يكون باستطاعتهم غض الطرف عن عبور أفراد مشتبه بهم غير أنهم يتعرفون على هويتهم شكلياً، وكذلك يستطيعوا اتهام أفراد أبرياء بانتحال هوية لكنهم مطلوبون لإسقاطهم أو ليحظوا بإعجاب مرؤوسيهم الذين يريدون نتائج. و مجمل القول: إن استغلال السلطة هو العملة السائدة في أثناء هذه الحملات التفتيشية التي تتم على أساس الطائفة والأصل.

ولإعطاء مثال يبيِّن غرابة الوضع، فإنه يكفي أن نذكر موجة الاعتقالات التي حدثت في عام ٢٠٠٥م في مدينة بغداد والتي رفعت ارتفاعاً كبيراً عدد "الثوار" الذين قتلتهم قوات الأمن. وقد بيَّن التحقيق الداخلي الذي قام به الأمريكيون لفهم هذه الظاهرة أن جزءا كبيراً من المترجمين المقنعين المكلفين بالقيام بحملات تفتيشية كانوا يحملون اسم "علي" أو "حسن" أسماء شيعية بحتة، في حين أن كل الأفراد المعتقلين أو المقتولين خلال عمليات الاعتقال تقريبا كانوا يحملون اسم "عمر" أو "عثمان"، أسماء بحتة لأفراد الطائفة السنية...

وعندما لا يكون هناك مترجمون تابعون لوحدة الحراسة أو حملات التفتيش عن الهوية، يتدبر الأمر الجنود الأمريكيون ما استطاعوا. وبشكل عام، يكون لدى الجنود الأمريكيين قائمة مكتوبة بالإنجليزية، ويطلبون من الأفراد المعتقلين بالإشارة بأصابعهم على أسمائهم في قائمة الأشخاص المطلوبين. لكن بكل تأكيد، من النادر أن يشير مشتبه بمحض إرادته إلى اسمه في قائمة يعرف جيداً خطر ومصير وجوده فيها. وفقط في حال جهله بكل ما يتعلق بالإجراءات العسكرية، فإنه لن يشير أبداً إلى اسمه في القائمة.

أمام هذا النقص الحاد في عدد المترجمين، فإن عملية الإشارة إلى الأسماء أصبحت "بالغة الدقة": إذ طلب الجنود من مرؤوسيهم إمكانية الحصول على أسماء المشتبهين باللغة العربية والتي قدمت لهم باللغة الإنجليزية. وبذلك، يستطيعون مقارنة الأسماء المسجلة في بطاقات الهوية الموجودة بحوزة المشتبهين بالشكل العام للحروف في القائمة الرسمية. ناهيك عن تحديد أن خطورة ارتكاب أخطاء من هذا النوع لهذه العملية الكتابية، شديدة التقريبية، مرتفعة جداً.

وهكذا، أصبحت حملات التفتيش عن الهوية مشكلة في غاية التعقيد. فضلاً عن أنه ينبغي على العراقيين، للذهاب على سبيل المثال إلى أقرب مستشفى لتحديد آباء مختفين أو ضحايا حوادث، أن يستبدلوا باستمرار بطاقة هويتهم العراقية ببطاقة تعريفية عسكرية أمريكية تحمل اسمهم مع كتابة الملاحظة الإلزامية: "يلزم الحراسة".

دون أن يكون هناك مترجم محلي، فإنه يستحيل التحقق من صحة محتوى بطاقات الهوية الأصلية ومنع انتحاري من الاختباء في المجموعة. وهكذا، بالرغم من الإجراءات الأمنية الصارمة جداً وأدوات المراقبة المتطورة والمتقدمة جداً، وقعت الكثير من الحوادث المميتة في قلب الأماكن المحمية أمنياً، بما في ذلك المنطقة المشهورة بـ"المنطقة الخضراء".

أصبحت أيضاً تداعيات انعدام الأمن كارثية جداً. إذ توجه الأمريكيون نحو توظيف مترجمين من بلاد مجاورة لفقدهم الثقة في مترجميهم الفوريين العراقيين. وأُرسل بفظاظة آلاف الأفراد بمؤهلات مختلفة ومتنوعة إلى العراق ليعملوا مساعدين لغويين في مقام ومكان المترجمين الفوريين المحليين. وعاش البعض مغامرات خيالية لا تصدق.

مشاركة المرتزقة في الأحداث

يشكل المترجمون الأتراك قدوة للآخرين. في الحقيقة، كان معظم المترجمين الذين قام الأمريكيون بتوظيفهم في بداية الحرب ليترجموا من اللغة الكردية أو من اللغة العربية من أصول تركية، فهذا تناقض أيما تناقض.

إن الأغلبية العظمى قامت بتوظيفهم شركة تحمل اسماً موحياً بـ (Titan)، وبعثت عشرات الممثلين إلى جنوب شرق تركيا خصيصاً لهذا الغرض. وهؤلاء وظفوا بقوة في المكان أفرادا من جميع الطبقات الاجتماعية المهنية، ومهما يكن، كان الجيش الأمريكي في أمس الحاجة وأضيقها، وكان يتعهد بدفع رواتب عالية جداً وضمان حياة أفضل من الحياة في تركيا. وهكذا، حل هؤلاء المجندون المدللون في العراق من بين سرايا "اللغويين" المجندين لمساندة الجيوش الأمريكية في انتشارها في الأراضي.

نعرف على سبيل المثال أن مجموعة مكونة من زهاء أربعين مترجما تركيا قد أُرسلت في شهر مايو عام ٢٠٠٣م، أي بعد مرور شهرين فقط على التدخل الأمريكي، إلى قاعدة أمريكية في شمال العراق بالقرب من مدينة كركوك لكي يعملوا مع فرقة سلاح المظلات ١٧٣ التابعة للجيش الأمريكي.

غير أن حدثاً طارئاً قلب - رأسا على عقب- حياة هؤلاء المترجمين الأتراك الذين اضطروا في نهاية الأمر إلى هجر الزوجة والأطفال في تركيا للجوء إلى الولايات المتحدة حيث يعمل جلهم منذ ذلك الوقت سائقي أُجرة خاصة في ولاية كاليفورنيا. وأملهم ضعيف في العودة يوماً من الأيام؛ لأن السلطات التركية اتهمتهم بالخيانة. فمصيرهم السجن المؤبد وأشد أنواع التعذيب وربما الموت في حال العودة إلى البلد. إن كل هذا بسبب حادث طرأ في بداية حرب العراق.

في الحقيقة، قام الجيش الأمريكي في تاريخ ٤ يونيو ٢٠٠٣م بتنفيذ عملية خاصة في مدينة السليمانية الواقعة في شرق كركوك، بناءً على معلومات أدلى بها جهاز الاستخبارات. هذا الأخير كان يشير إلى وجود ثوار في وسط البناية التي تحتضن الجبهة التركمانية العراقية، حزب سياسي يمثل الأقلية التركمانية في العراق. وبالتالي، تم اعتقال جميع الأشخاص المتواجدين في هذه المبنى وإرسالهم إلى كركوك ليسجنوا فيها ويخضعوا للتحقيق.

حتمت "الصدفة" أن من بين السجناء أحد عشر عسكرياً من القوات الخاصة التركية التي يجهل الجميع وجودها والسبب في تواجدها على الأرض. إلا أن اعتقالهم سبب في خلق أزمة دبلوماسية فعلية؛ حيث تطالب تركيا بصفتها عضوا في منظمة حلف شمال الأطلسي حليف الولايات المتحدة بإطلاق سراح فوري لهؤلاء الجنود دون مهلة ولا تفسير.

بمناسبة هذه العملية، طُلب من عدد كبير من المترجمين أن يعملوا مترجمين للسجناء خاصة للضباط الأتراك المعتقلين. ولكن هؤلاء الضباط لم يستسيغوا مشاركة مترجمين من أصل تركي في استجوابهم عن طريق الاستخبارات الأمريكية ولا تواجدهم في نفس القاعدة العسكرية المتواجدين بها. وفيما بعد، اُتهم كل المترجمين الأتراك الذين قاموا بالترجمة الفورية "بالخيانة العظمى" وذلك على ذمة الشهادات التي أدلى بها المعتقلون من أفراد القوات الخاصة ومن ثم أُطلق سراحهم تحت ضغوط الحكومة التركية.

بالتالي، فإن المترجمين المتورطين هم في الواقع ضحايا تصرفات خرقاء بين القوات المتحالفة. وعند موافقتهم على هذه المهمة، لم يدر بخلدهم أبداً أن يجدوا أنفسهم في مثل هذا الوضع.

ولنتذكر أن الحكومة التركية كانت قد رفضت في ذلك الوقت أن يستخدم الجيش الأمريكي أراضيها لضرب العراق. بيد أنها أرسلت جيوشا برية لحماية رعاياها المتواجدين في العراق ومصالح الأقلية التركمانية المرتبطة بها تاريخياً. وبذلك، تعايشت بعض جيوش النخب التركية في نفس القواعد العسكرية مع حلفائهم الأمريكيين.و تعد الترجمة مخاطرة بالنسبة لموظف تركي لصالح طرف أو آخر في ظل هذه الظروف. غير أنه طُلب من المترجمين من الأصول التركية الذين عينهم الأمريكيون ليعملوا في العراق الأطمئنان على وضع نشاطات أبناء جلدتهم، حلفاء الولايات المتحدة بكل تأكيد لكنهم في غاية التحفظ نوع ما في نظر القادة في الميدان. ويجدر القول بأن العسكريين الأتراك المسلمين لا يتشاركون مع مضيفهم حتى في وجبات الطعام، فهم هواة لحم الخنزير...

تتيح شهادة بعض المترجمين العائدين من العراق فهم تعقيد وضعهم، خاصة فيما يتعلق بموضوع الأمانة. وهؤلاء يفسرون بكل برود أنه لم يكن أبداً في مصلحتهم "التجسس" على أبناء جلدتهم، وهم أنفسهم جواسيس، وذلك يُعزى لسببين. فمن جهة، لأنهم مازالوا أتراك الجنسية، وأنه كان من الممكن أن يُعتقلوا في بلدهم الأصل بتهمة التجسس ضد حكومتهم. وبالتالي لم يكن لهم أي مصلحة أن يخدموا بأمانة شركاءهم الأمريكيين. من جهة أخرى، فإنهم قد يحتاجون إذا لزم الأمر لمساعدة أبناء جلدتهم العسكريين في الميدان وذلك في حالة أن يسبب لهم الأمريكيون مشاكل أو يتخلون عنهم ويتركوهم يتدبرون مصيرهم في العراق "كما فعلوا ذلك في فيتنام".

وبالتالي، كانت الاتصالات بين المترجمين من أصول تركية والضباط الأتراك المقيمين في نفس القاعدة تقتصر على النقاشات التافهة خلال استراحات تناول الشاي. وبذلك، كانوا يتظاهرون بأنهم ينفذون الأوامر التي تفرض عليهم أن "يطمئنوا على

الجواسيس الأتراك" لكنهم لم ينقلوا أي معلومة مفيدة إلى القادة الأمريكيين وذلك خشية من الانتقام.

ومن بين المترجمين الذين يتحدثون اللغة الكردية اتهمهم العسكريون الأتراك ليس بالخيانة فحسب، بل اُشتبه بهم كذلك على أنهم أنصار ثوار حزب العمال الكردستاني (PKK) المقاتلين ضد الحكومة التركية بشن هجوم من إقليم كردستان العراقي.

وقد طُلب لاحقاً من الذين لم يشاركوا في الاستجوابات أن يزودوا أبناء جلدتهم من الأتراك بمعلومات عن تحركات الجيش الأمريكي ومهماته وأهدافه ومراكز الاعتقال، إلخ.

لم يعد أكثر مما مضى بإمكان المترجمين الذين رفضوا من باب الأمانة والإخلاص مع الأمريكيين إفشاء مثل هذه المعلومات أن يعودوا إلى تركيا، لكونهم متهمين بالخيانة العظمى لسلطات بلدهم الأصل. وبالمقابل، تم تهنئة الذين تعاونوا مع الضباط الأتراك المعتقلين في الأراضي العراقية وسُمح فيما بعد لهم بالعودة عند نهاية عقدهم مع الأمريكيين، في حين أنهم قصروا تقصيراً كبيراً في أداء واجباتهم مع الأمريكيين. إن ذلك مثال عالمي على خيانة وأمانة المترجم.

لكي يتفادى المخلصون للأمريكيين السجن والتعذيب قاموا برفضهم التعاون مع الضباط الأتراك وإفشاء معلومات سرية، ولذا فإن الحكومة الأمريكية قبلت، بناء على طلب الجيش العاجل، ترحيلهم إلى الولايات المتحدة وقبولهم بصفة لاجئين. إلا أن هؤلاء المترجمين لم يعد لديهم أي فرصة للعودة إلى تركيا أو لرؤية عائلاتهم من جديد، فقد استفادوا من وضع يضع حكومتهم ضمنياً في موقف خطير. بالتالي، فإن وضعهم لاجئين سياسيين هو بمثابة اتهام ضمني لتركيا من قبل الحكومة الأمريكية.

العبرة من هذه القضية: أنه إذا كانت الترجمة تتجاوز الحواجز الوطنية والثقافية، فحري بالمترجمين ألا ينسوا أبداً جنسيتهم الأصلية. فما الذي يجعل المترجم يقوم بخدمة وطن دون آخر في مثل هذه الظروف ناهيك عن عمله السياسي لصالح فريق دون فريق آخر؟ إضافة إلى تعقيد الأوضاع، هناك خيارات سياسية جلية وبسيطة، إذا لم نقل إن الذين لا يعيشون الوضع نفسه ينظرون لها كما هي. ونجد في وثيقة الملخص التي حررها الضباط الأتراك فيما يتعلق بالحادثة المذكورة آنفاً، أن المترجمين الذين كانوا يعملون لصالح الأمريكيين نعتوا بـ "خونة الوطن". وبالنسبة لهم، فإن الأشياء واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار.

من الجانب الأمريكي، إن الشركة (Titan) لم تكن مستعدة لتمديد عقد المترجمين المتورطين في مثل هذه الظروف. وقد ارتأت الشركة أنها غير قادرة على تأمين الحماية لهم في العمل ولا في مكان آخر وأنها بالتالي مجبرة على تسريحهم "لعدم تنفيذ العقد". فهذه قمة السخرية والازدراء.

والأسوأ: أن رجال أجهزة الاستخبارات الأمريكية المكلفين بالاستجوابات أطلقوا شبهات مفادها وجود مناورة للاستخبارات التركية التي أرادت بالتالي أن يتسلل مخبرون إلى الولايات المتحدة متذرعين باضطهاد وتعذيب الضباط لهم. وعلى إثر هذه المناورة، استطاع المضطهدون اللاجئون كسب ثقة الأمريكيين و أن يحسنوا التعامل فيما بعد لصالح الأتراك، فكل شيء يتم كما يحلو لهم. ومجمل القول: إنهم كانوا مشتبها بهم وتاريخهم يثير الشك بشكل كبير.

وهكذا، استسلم المترجمون لمصيرهم. وفي ليلة وضحاها، تم منعهم من دخول المنشآت الحساسة، بل حتى أحياناً تهجرهم دوريات على بعد مسافات من القواعد العسكرية التي يعيشون فيها. إن هذا من الحذر في وقت الحرب.

قرر الأمريكيون، أخيراً، في نهاية "اختبارات الأمانة"، إخراج المترجمين من العراق لحماية حياتهم التي أصبحت فعلياً مهددة. غير أنه في إحدى مذكرات أجهزة الأمن، اقترح أحد المسؤولين إرسال هؤلاء الأتراك إلى إحدى القواعد العسكرية الأمريكية في ألمانيا، ودفعهم، بمجرد وصولهم، إلى الاختفاء في ألمانيا. هل كل الأتراك لا يحلمون بالعيش في ألمانيا؟!

وأخيراً، تم نقل هؤلاء "اللغويين" بطائرة عسكرية إلى قاعدة ديلاوار الجوية في الولايات المتحدة، وذلك بعد شهرين بالكاد من وصولهم العراق. وبدخولهم الأراضي الأمريكية، طلبوا اللجوء السياسي. غير أنهم أمضوا ثلاثة أشهر ونصف في سجن محافظة يورك، لا علم ولا خبر من الجيش ولا من رب عملهم، قبل أن يسمح لهم قاضي الهجرة بطلب اللجوء السياسي.

رفع هؤلاء المترجمون قضية على الجيش ومن ثم على رب عملهم، لكن قضيتهم رُفضت. والسبب وراء ذلك أن شركة تركية هي التي وظفتهم رسمياً، وهي مجرد متعهد من الباطن مع الشركة الأمريكية (Titan)، فضلاً على أنها لم تدفع لهم مبلغ ٦٠٠٠ دولار شهرياً الموعودين به في البداية، بل دفعت فقط ١٥٠٠ دولار شهرياً، وحصلت الشركة التركية على فرق المبلغ على أنه "رسوم عمولة". غير أنه يستحيل عليهم أن يلاحقوا قضائياً هذه الشركة المحلية في تركيا لأنهم هم أنفسهم مطلوبون للعدالة التركية بسبب الخيانة العظمى... فهم يدورون بدائرة مغلقة.

ومن جهة مسؤولي الجيش الأمريكي، فهم يظنون أنه يُفترض على المتظلمين أن يروا في أنفسهم أنهم محظوظون؛ لأنهم حصلوا على حق اللجوء السياسي في الولايات المتحدة وأنهم نجوا بجلدهم سالمين بعد الحوادث والتغيرات الطارئة التي عاشوها في العراق. وهم يذكَرون في هذا الوقت أن أكثر من ١٥٠ من زملائهم

المتعاقدين مع الشركة نفسها اغتيلوا في السنة نفسها ٢٠٠٣م. وهذا يعني أن الوضع في نفس الوقت استبدادي وعلى حافة الانفجار.

جواسيس أمريكا

يروي "اللغويون" المتعاقدون والذين خدموا في بداية الحرب في شمال العراق عند عودتهم من المهمة أن المنطقة تعج بالجواسيس من كافة الجنسيات: أمريكيين بطبيعة الحال، و أيضاً أتراك، وأردنيين وسوريين وإسرائيليين.

وقد برع بعض المترجمين المتمرسين في فن إزاحة هؤلاء الجواسيس. ويجدر القول بأن هؤلاء الجواسيس كان يتم التعرف عليهم بسهولة: حسب رأي المترجمين، كان يبدو على الجواسيس الأمريكيين وكأنهم في فيلم هوليوودي، إذ كانوا يبالغون في طرح الأسئلة، وعادة ما تكون في غير محلها أو مثيرة للسخرية نظراً للظروف، وكأنهم يقومون كل مرة بتعبئة نموذج لصالح وكالة الاستخبارات الأمريكية (CIA). وكان الأكثر طرافة إن لم نقل الجديد من نوعه في هذا الوضع، عندما كان يلجأ الجواسيس الذين لا يريدون الكشف عن هويتهم إلى جنود آخرين في القاعدة إلى المترجمين الأجانب ليترجموا في البداية أسئلتهم السرية أو بالأحرى ليقوموا بطرح الأسئلة محلهم.. إنها مشاهد منافية للعقل حيث يجد الجاسوس نفسه أمام امتحان الأجنبي المزدوج.

وهكذا، كان المترجمون هم الأفضل حتى في تحديد الجاسوس من غيره. وعن السؤال عمن هم الجواسيس الذين يتم التعرف عليهم بسهولة، إذ يجيب جل المترجمين أنه يستحيل معرفة رجال CIA من أول نظرة، فهم لا يتشابهون في الواقع، كما يرتدون لباساً مدنياً متنكرين بهوية مزورة ووظيفة وهمية. وكانت نظاراتهم السوداء المعتمة

وهواتفهم المحمولة ذات التقنية العالية جداً والأمان الفائق تكشفهم للوهلة الأولى.

ويلاحقون عن كثب الجواسيس الأتراك الذين يتم التعرف عليهم من خلال أحذيتهم العسكرية الخاصة والتي تمثل أجهزة استخبارات إسطنبول. أما الجواسيس الإيرانيون، فكانت تكشفهم لكنتهم العربية المطعمة بالفارسية التي لا يمكن أن تمر بسلام أمام أي مترجم من أهل المنطقة. كان رجال الاستخبارات الإسرائيلية المدركون لهذه الإعاقة الصوتية، كما يبدو، صامتين كأنهم بُكْمٌ، وبالتالي من الممكن التعرف عليهم من خلال صمتهم في كل امتحان.

إذن، كان يكشف البعض مظهرهم الخارجي، الجسدي أو فيما يخص اللباس، وكان يكشف البعض الآخر لغتهم أو استخدامهم لكلمات غير مناسبة أو أيضاً من خلال نطقهم الذي يبرز أن المتكلم أجنبي. ومجمل القول: كان كل هذا المجتمع مصاباً بالإعاقة ولم يكن يستطيع بأي حال من الأحوال أن يمر مرور الكرام لدى العراقيين، ما كان يجبر الجواسيس على البقاء بين أروقة القاعدة العسكرية نفسها.

الجواسيس السوريون فحسب هم من كانوا يستطيعون الانصهار في البيئة، فضلاً على أنهم لم يتشاركوا مع الأمريكيين بالمنشآت العسكرية نفسها، وذلك خلافاً لجواسيس من جنسيات أخرى. لكن في هذا شأن سياسي أجنبي.

من باب المفارقة، كان جميع هؤلاء الجواسيس المكلفين رسمياً غير قادرين كلياً على تدبر أمورهم باستقلالية في الأراضي العراقية. فهناك نشاطات يومية بسيطة مثل شراء المأكل من الممكن أن تكشفهم و أنها تشكل خطورة عالية على حياتهم. بالتالي، كانوا مرغمين على أكل الوجبات المطبوخة مسبقاً (MREs) والتي تقدم لجنود القاعدة العسكرية، في حين أن المترجمين كانوا يأكلون فواكه وخضروات طازجة، ولحم بلدي ذي جودة وأطباق تقليدية لذيذة، وهذا بفضل قدراتهم اللغوية.

حاول بعض الجواسيس من الأمريكيين جاهدين ممن كان عندهم روح المبادرة استغلال ملكة المترجمين اللغوية ليتعلموا في الميدان الجُمل الأساسية التي تساعدهم على تدبر أمورهم في البلد. ولذلك، كانوا يرافقون هؤلاء المترجمين ليتسوقوا معهم آملين التأقلم مع الطريقة الخاصة التي تسمح بأن يتدبروا أمورهم بمفردهم فيما بعد في البلد. ولكن هذا لم يكن مجدياً، فهم لم يتغيروا، إذ كان التجار العراقيون يعرفون أنهم أمريكيون، وهم لم يتوانوا في لفت انتباههم لذلك باستهزائهم بلهجتهم أو بطلبهم، وذلك عندما لا يبلغون جماعات الثوار عنهم.

على سبيل المثال، كان يستطيع مثل هذا الجاسوس الأمريكي أن يطلب من جزار عراقي دون تلعثم و بلهجة عراقية مقاربة جداً: "أريد لحم كامل الاستواء". إن هذا يثير الدهشة والاستغراب، لأن التمييز بين درجات الطهي فكرة لا وجود لها بشكل عام في معجم البلاد العربية. بالنسبة لسكان البلد، فمن الضروري أن يكون اللحم كامل الاستواء. وعندما يطلب ذلك الجاسوس "لحماً نيئاً"، حتى قد يُنظر له على أنه متوحش ما يعرض حياته للخطر...

وسرعان ما أصبحت سهولة ومرونة المترجمين في التحرك وتدبر الأمور مع سكان البلد شيئا لا يطيقه جواسيس التحالف والذين كانت مهمتهم العيش مع العراقيين لمعرفة الجو العام للشارع العراقي وسبر المشاعر الحقيقة لسكان البلد تجاه جهود نشر السلام والديمقراطية. فهم كانوا منزعجين من هذه المنافسة غير الشريفة التي كانت تصب دائماً في غير مصلحتهم ولم تكن تساهم بتسهيل عملهم.

لكن بالرغم من الريبة والانزعاج، أدرك الجميع جيداً منذ بداية عام ٢٠٠٣م أن هناك طرقا لكسب الأموال مع هذه الحرب الجديدة. ولدينا شواهد دقيقة عن دور المترجمين في تنمية تجارة حقيقية من نوع اقتصاد موازٍ للحرب.

وعلى سبيل المثال، كان المترجمون يعرفون الطريقة التي يتم من خلالها يمكن كسب المال عن طريق استغلال سذاجة الجنود الجدد القادمين. وذلك لسبب غاب عن أذهان "اللغويين"، كان العسكريون الأمريكيون يظنون أنفسهم في عطلة ويريدون بكل تأكيد شراء هدايا تذكارية ليأخذوها معهم بمجرد عودتهم إلى بلدهم، بحيث إنه على سبيل المثال إذا كان يريد جندي أن يشتري العلم السابق للعراق الذي يعد هدية تذكارية خاصة بالأمريكيين في عام ٢٠٠٣م، فالبائع العراقي الذي لا يتكلم الانجليزية يوضح للمترجم بأن قيمته خمسة دولارات، لكن المترجم يترجمها فوراً (٤٥) دولارا بدلاً من (٥) دولارات. وبكل تأكيد، يذهب الفرق إلى جيب المترجم، غير أن الجندي سعيداً أيضاً لأن لدية انطباع أنه قد حصل على أفضل سعر وجودة بفضل وساطة مرافقة النصاب. وهذا كان ينسحب على أنواع الشراء المعتاد أو النادر.

في البداية، لم يكن عند الجنود الأمريكيين أية مشكلة مالية. كان لديهم أموال وكان بإمكانهم الشراء بالسعر المعلن من قبل البائعين العراقيين عن طريق وساطة المحاباة للمترجمين. ولكن بعد مرور بضعة أشهر في العراق، لم ينجح الجنود الأمريكيون في فتح حساب في البنك و بدأت تنقصهم السيولة بوحشية. ولم يعد باستطاعتهم شراء أي شيء من خارج أسوار القاعدة العسكرية ولا من مكان آخر من متجر القاعدة (PX). ولم يعد لديهم حق اختيار الطعام وكان يجب عليهم أن يأكلوا يومياً من الوجبات العسكرية الرديئة كلياً والشهيرة بـ (MREs). ومنذ ذلك الوقت، خيم عليهم الاكتئاب والغضب مما أثار شجارات متكررة.

وعلى النقيض من ذلك، كان باستطاعة المترجمين استخدام مهاراتهم اللغوية ليستغلوا التواطؤ المحلي ويقوموا بشراء دجاجة كاملة على سبيل المثال بخمسة دولارات فقط، مما لا يعادل حتى سعر قطعة من الشوكولاته في داخل القاعدة العسكرية.

ولايفتأ الوضع يتفاقم سوءاً مع دخول فصل الصيف وارتفاع الحرارة و من ثم التورط في الحرب التي زادت من خطورة تنقلاتهم. وكانت معنويات الجيش في أدنى مستوياتها و"المتعاونون اللغويون" لم يفعلوا أي شيء لرفع هذه المعنويات وذلك بحل منغصات الحياة اليومية البسيطة، لأن في ذلك مضرة لمصالحهم على أرض الواقع. ونجد في الكثير من مواقع الانترنت الشخصية والمدونات تعبيرا عن الضيق والشدة اللتين يعيشهما الجنود الذين يعانون بقسوة من العزلة والملل ومن سوء التغذية، عند بعضهم كما يبدو.

ستحدث خلافات عديدة بسبب هذا الوضع، ولا تمكث هذه الخلافات طويلاً حتى تتحول إلى ضغينة بالكاد يتم احتواؤها، وهذا إذا آمنا بروايات البعض والبعض الآخر حين عودتهم من العراق، لأن هناك مشاكل أخرى غير مشكلة الغذاء.

ابحثوا عن المرأة

بلغ تدهور العلاقات ذروته عندما أصبح للمترجمين باستخدامهم كافة الوسائل حظوة عند نساء البلد. فلم تكن النساء العراقيات من المنطقة يترددن بدعوة البعض منهم على تناول طعام الغداء أو العشاء في بيوتهن على أمل أن يقوم هؤلاء المترجمون بدفع قيمة الوجبة بأغلى الأسعار، فالعراقيات مدركات أن المترجمين كونوا ثروة ويقدرون المطبخ العراقي.

في غضون هذا الوقت، كان العسكريون عامة والجواسيس خاصة سجناء قاعدتهم وكانوا يتخيلون ممارسة الرذيلة عند زيارة المترجمين لبيوت النساء العراقيات، وهم لا يعرفون حق المعرفة طبيعة المجتمع العراقي التقليدية التي تمنع منعاً باتاً أي علاقة جنسية غير شرعية "من غير زواج"، خاصة مع رجل أجنبي غير مسلم.

بالرغم من تفسيرات المترجمين الذين أنكروا وجود علاقات غير شرعية مع العراقيات، مؤكدين أنهم تناولوا الطعام بسعر مرتفع عند أهل البيت، فقد بلغت الضغينة والحقد أوجها منذ نهاية السنة الأولى للاحتلال الأمريكي مما تسبب في أوضاع لا نهاية لها مثل: الشجارات على الملأ، الدسائس والمكايد والمكر والخديعة وأعمال الانتقام والتحقيقات الداخلية وتحقيقات سماع شهود النفي عند الإدارة العليا...إلخ

وقد اضطر بعض المترجمين المسلمين - رغبة في توضيح وضع تراه الإدارة العليا العسكرية مبهماً- إلى الزواج بالعراقيات اللاتي تناولوا في بيتوهن ذات مساء وجبة العشاء. لكن تجدر الإشارة، تخفيفاً لمسؤوليتهم، أن المترجم الأجنبي حتى وإن كان مفلساً كان يظهر على أنه مكسب في ظل الظروف الاقتصادية التي يمر بها العراق في وقت الحرب. أضف إلى ذلك، أنه كان يستطيع أن يقدم آفاقاً مستقبلية مهمة، خاصة للنساء الراغبات في هجر العراق وغير المترددات في رفع شكوى لدى السلطات بتهمة الاستغلال الجنسي لإجبار الشقي المطالب على إصلاح الخطأ المتهم به.

من جهة أخرى، شهدت العروض التي كانت النساء تقدمها للزواج بهن ارتفاعاً ملحوظاً بعد بدء العمليات العسكرية الضخمة بهدف نشر السلام في البلد، ولكنها أدت، على العكس، إما إلى اختفاء عدد كبير من الرجال المتزوجين، وإما إلى موت الكثير من الشباب ممن هم في سن الزواج. وقد أصبحت هذه الظاهرة الشغل الشاغل منذ عام ٢٠٠٤م عندما شهد الوضع الأمني على الأرض قمة التدهور.

تبيّن العديد من الشهادات التي أدلى بها المترجمون حول هذه المواضيع خاصة في إقليم كردستان العراق أن ما كان يظهر للعسكريين الأمريكيين أنه من البغاء المقنع لم يكن في الحقيقة إلا طريقة تمهيدية للزواج من نساء العراق الأكراد اللائي أصبح بالنسبة لهن الطموح بالزواج من مترجم كردي يفضل أن يكون من أصول تركية ومن العائدين الجدد من الولايات المتحدة أو أن يكون متعاقداً من الباطن مع الأمريكيين.

من جهة أخرى، تمنع ثقافة القبائل في كردستان أي زواج مع عسكري أمريكي غير مسلم. حتى إذا رغب "الرجل والمرأة" في ذلك فإنهما سيكونان عرضة لانتقام الجميع. على أية حال، لم يكن اندماجهم في العشيرة العائلية مقرراً، نظراً لحساسية وتعقيد موضوع "العرض والشرف" في المنطقة. وبذلك، استغرق الجنود الأمريكيون وقتاً لإدراك أنه مثلاً من غير الممكن كلياً، بطبيعة الحال، ممارسة الرذيلة مع امرأة عراقية، غير أن مصير التبعات المنطقية لمثل هذا العمل هو الموت، العقوبة التي تعد بالفعل "طبيعية" للمذنبين.

من جهة أخرى، انتهى المطاف بالجنود، سجناء قاعدتهم التي تخضع لحماية أمنية مشددة، بالانغماس بالتجارة غير الشريفة تجنباً من الغرق في عالم الجنون. كما كان المترجمون هم المحرك الأساسي لكل هذه التجارة، نظراً لسلاسة وسهولة التواصل بينهم وبين السكان المحليين، ولوجود شبكات من المتواطئين خاصة بهم في وسط الجيش والشرطة العراقية في بعض الأحيان

وهكذا، يروي الجنود في مدوناتهم حالات من البغاء على نطاق واسع حدثت حتى في داخل قواعد عسكرية. ومما يبدو أن هناك بعض المترجمات عرضت مفاتنها للعسكريين الأمريكيين مقابل مبالغ مالية قد تكون تافهة (٢٠ دولار)، لكنها كانت

تبدو كبيرة في نظر المترجمات، نظراً لظروف الشح الغذائي والصعوبات المادية التى شهدها الجنود في وقت الأحداث.

كما يوجد هناك شهادات على حالات بغاء فتيات أمريكيات في الجيش. وكذلك الجنديات يمارسن البغاء مقابل الثمن البخس بقيمة (٢٠ دولار) في معظم الأوقات لكي يحصلن على الطعام من خارج القاعدة العسكرية. وكما أن هذا غريب لا يصدق كما يبدو، فإن بعض المترجمين يستغلون وظيفتهم كوسطاء لا يمكن الاستغناء عنهم ليهبوا أنفسهم بالمجان مفاتن هؤلاء الفتيات عند الحاجة. ومقابل ذلك، تضمن الفتيات الحصول على الطعام والشراب بصورة منتظمة وصحية.

وبكل تأكيد، لا يجد نفس المترجمين الذين أغووا هؤلاءالنساء حرجاً في أن يحصلوا في ظل هذا العمل على فائدة بسيطة من مشتريات الجنود الآخرين. وهكذا، نعرف ظهور تجارة فعلية في منطقة كركوك خلال أكثر من ستة أشهر، إذا صدقنا شهادات الجنود القدماء العائدين من العراق نهاية عام ٢٠٠٣م. غير أننا متيقنون كل اليقين أن الوضع ما كان مختلفاً جذرياً عن القواعد العسكرية الأخرى في البلد. وسوف تكشف على الملأ فضيحة سجن أبي غريب في عام ٢٠٠٤م حجم ضخامة الكارثة.

المترجمون الفوريون المعذبون

أتاحت فضيحة سجن أبي غريب إبراز نوع جديد من المترجمين *المعذبين*. وتجلى خلال التحقيق الذي قامت به أجهزة الاستخبارات الأمريكية نفسها أن بعض "العملاء المتعاقدين" دفعوا الجنود إلى تعذيب السجناء العراقيين، وفي بعض الأحيان كانوا يشاركونهم في أعمال التعذيب بحجة استجوابات عنيفة. لم يكن هؤلاء "العملاء المتعاقدون" غير "اللغويين"، حسب التسمية الرسمية، الذين قامت الاستخبارات

بتوظيفهم حصرياً لمعاونة العسكريين خلال استجوابات المعتقلين خاصة الثوار العراقيين[٥].

في الواقع، إن دور البعض والبعض الآخر لم يكن محدداً تحديداً واضحاً وأن الصلاحيات على أرض الواقع في المهام للعسكريين والمترجمين كانت أكثر غموضاً مما نتوقع. حتى يتضح من خلال تقارير التحقيقات الرسمية المعلنة أن الجنود ليسوا فقط تابعين للمترجمين المرافقين لهم في الميدان، بل هم أيضاً يمتثلون لأوامرهم في الأحداث لكون المترجمين يتحكمون في المعلومات التي تسمح بتقييم الوضع واتخاذ القرارات المناسبة. وقد أعرب الكثير من الضباط عن قلقهم من الغياب التام لمراقبة نشاط المترجمين في الميدان. حتى ندد البعض بتدخلاتهم في سلسلة الأوامر لتوجيه القرار العسكري في اتجاه أوفي اتجاه آخر.

وهكذا، ذكر الفريق أول أنطونيو تاجوبا في تقريره في الكونجرس الأمريكي بشأن فضيحة أبي غريب حالة مترجم متعاقد تابع لشركة CACI الدولية، إذ تدخل مباشرة في تسلسل الأوامر بإعطاء أمر للجنود للقيام بتعذيب السجناء.

تلقى مترجم آخر يعمل لصالح شركة Titan عتاباً لأنه نقل للعسكريين كلاماً غير صحيح للسجناء. وفي النهاية، أحيل عدد كبير من المترجمين العاملين لصالح نفس الشركة للتحقيق لإدلائهم بشهادة زور ورشوة الشهود. خاصة أنهم قاموا بوشاية أشخاص أبرياء في أثناء تسجيل محضر الاستجواب.[٦]

---

[٥] هذه على سبيل المثال حالة شركة Arlington's CACI الدولية التي توفر للجيش الأمريكي مترجمين متخصصين في استجوابات السجناء، ويتم توظيفهم على أساس عقود محددة بسنة واحدة فحسب. المؤلف

[٦] بين التحقيق على سبيل المثال أن أحد مترجمي شركة Titan في الميدان، شخص يُدعى عادل نخلة قد تورط بصورة مباشرة في هذه اللحظات المرعبة: شارك بصورة نشطة ومستمرة في جلسات تعذيب السجناء العراقيين. المؤلف.

وأمام الكونجرس، اعترف اللواء لانس سمث مساعد قائد الجيش الأمريكي في العراق بأن الجيش كان يقوم بتوظيف مئات المترجمين المتعاقدين وأن هذا الوضع سبب "آثاراً جانبية ومؤسفة".

وحسب شهادته، كان هناك باستمرار في سجن أبي غريب على الأقل أربع مترجمين موكل إليهم "تجهيز الاستجوابات في اللغة العربية"، وستة مترجمين يقومون بـ"تقييم المعلومات التي قدمها المعتقلون"، وعدد غير معروف من المترجمين يقوموا بـ "مساعدة العسكريين في استجوابات السجناء". إن جميع هذه الوظائف في غاية الحساسية والأهمية لكي يسير عمل الإدارة على أرض الواقع على الوجه المطلوب، غير أنه لم يكن هناك أي مراقبة جدية على هؤلاء الأشخاص.

وفي عدة حالات شكلية، يلاحظ أن "المستجوبين المدنيين" أو بعبارة أخرى المترجمين الفوريين المتعاقدين كان عندهم الحرية في القيام باستجوابات حسب هواهم، بل حتى في قيادة العمليات العسكرية في الميدان إذا رأوا ضرورة في ذلك، ومن نماذج ذلك: التحقق من اعترافات معتقل.

وعلى المستوى النظري، ليس للمترجمين أي سلطة يمارسونها على العسكريين، فهم ليسوا إلا "مساعدين" أو "مستشارين" في أفضل الأحوال. غير أنه في الواقع، تبين شهادة الجنود الذي يخوضون العمليات على الأرض أن المترجمين لهم تأثير كبير على القرارات العسكرية. وذلك يعود، من جهة، إلى خبرتهم اللغوية والعسكرية التي كانوا يبرزونها عند القادة، ومن جهة أخرى بسبب أنهم كانوا يعملون مع ضباط ذوي مراتب عليا في التسلسل العسكري، مما ساهم في رفع مستوى تأثيرهم وحظوتهم عند جنود القاعدة.

في أثناء تحقيق سجن أبي غريب، اشتكى عدد كبير من العسكريين بسبب أن "اللغويين" عقدوا أو أعاقوا عن قصد بتدخلاتهم سلسلة الأوامر العسكرية على الرغم من أنها كانت واضحة وصحيحة. وغالباً، ما كانت العلاقات الشخصية بين هؤلاء المترجمين والضباط هي في الواقع أساس ملموس في اتخاذ القرارات العسكرية في ظل نظام معلومات واتصالات في مأمن من أي رقابة فعلية.

وتتكون عامة اللجان المكلفة باستجواب السجناء من ثلاثة أشخاص: الشخص الأول جندي مدجج بالسلاح، والشخص الثاني محلل استخبارات وأما الثالث فهومترجم. الشرطي يقوم بحراسة المعتقل، والمحلل التابع لوكالة الاستخبارات المركزية يتحقق ويقارن المعلومات، وأما المساعد المدني فهو هنا للقيام بترجمة الأسئلة والأجوبة، وهو هنا بكل اختصار لتسهيل الاستجواب. ولكن بما أنه يحمل جنسية أجنبية، فمعرفته باللغة سيئة بالأحرى، أي اللهجة العراقية.

قبل فضيحة سجن أبي غريب بكثير، ذكر عدة مسؤولين إساءات خطيرة للمعتقلين ووفيات متكررة تحت وطأة التعذيب. إلا أن القليل منهم خضع لتحقيق جدي من طرف التسلسل العسكري. واتضح في الحالات النادرة، أن عدم معرفة الأفراد المكلفين بالاستجواب للهجة العراقية هو السبب الرئيس للوفيات أو للهفوات الخطيرة.

وهكذا، توفي في شهر مايو عام ٢٠٠٤م مسؤول رفيع من حزب البعث على إثر استجوابه، إذ كان مسجوناً في مخيم البيت الأبيض الواقع في جنوب العراق. وقد استطاع المحامون إثبات أن سبب وفاته كان نتيجة مباشرة لغياب مترجم مع الجنود الاحتياطيين الأمريكيين المكلفين باستجوابه، إذ لم يكن أي منهم يتكلم العربية. فضلاً

عن ذلك، ويحدد تقرير التحقيق التالي: "لم يكن هناك أي مترجم كتابي ولا مترجم فوري تابع لهذا المخيم"[٧].

وإن الحالات الأكثر حدوثاً التي برزت على إثر الوفيات المشبوهة للمعتقلين العراقيين تعد مفيدة؛ حيث إن عدم ترجمة أمور مهمة لها انعكاسات حتمية، وبعد ذلك الترجمة السيئة التي تؤدي إلى اتخاذ قرارات أو أحداث مفجعة، وفي النهاية خيانة الأمانة في الترجمة فيما يتعلق بجمع المعلومات أو الشهادات الهامة المهملة.

في خلال النقاش في مجلس الكونجرس عن فضيحة أبي غريب، طعن نواب كثيرون في أمانة وإخلاص "اللغويين"، وفكر بعض المسؤولين رفيعي المستوى في محاكمتهم عسكرياً بتهمة "الخيانة[٨]". ومجمل القول: فقد كان يُنظر لهم على أنهم "خونة" من الطرفين، من الأمريكيين كما هو من العراقيين. وبالتالي، أصبح اغتيال المترجمين أمراً شائعاً[٩].

وعندما احتل الأمريكيون العراق، قاموا بتوظيف ٢٥٠٠ مترجم في العراق. ومن ٢٥٠٠ "لغوي"، اُغتيل ٢٥ من قبل عراقيين آخرين خلال ستة الأشهر الأولى، وهذا يعزى لأسباب عدة. ولكن في نهاية عام ٢٠٠٤م، ارتفع عدد المترجمين الذين تعرضوا للاغتيال إلى ١٥٠.

واُغتيل البعض بسبب وشاية رجال شرطة فاسدين مثل "الخونة"، وبعض منهم قُتل بسبب حكم السكان المحليين عليهم على أنهم "عملاء" (لم يكونوا يقومون بتدبير

---

[٧] انظر مقال على قناة أخبار ABC في تاريخ ٧ مايو ٢٠٠٤م، بعنوان: Death in detention: marine reservists face charges in Iraqi prisoner death». المؤلف

[٨] انظر على سبيل المثال مداخلة سيناتور أريزونا الجمهوري جون ماكين، المرشح للرئاسة الأمريكية. المؤلف

[٩] انظر على سبيل المثال مقال صحيفة نيويورك تايمز في تاريخ ٨ أكتوبر ٢٠٠٣م. المؤلف

الأمور عند نقاط التفتيش، إلخ)، والبعض الآخر في النهاية قُتل لرفضه إسداء خدمه لناس بسطاء يلتمسون منهم ذلك مقابل إكرامية أو السماح لهم بالعبور.

كما تعرض جل أُسر المترجمين المهددين لأعمال انتقامية. فالضحايا كانوا في البداية هدفاً لطلقات البنادق أو القنابل اليدوية، قبل أن يتحول الانتقام إلى ترحيل عقابي ومن ثم إلى حرب ميليشيات بين أحياء متناحرة.

تقع مسؤولية مثل هذا الاستهداف للمترجمين على عاتق الديكتاتور العراقي السابق صدام حسين الذي قد أعلن قبل اعتقاله بعدة أشهر بأن "ينبغي أن تقتل حرب العصابات أولاً العراقيين المتواطئين مع الأمريكيين قبل مهاجمة جيوش الاحتلال"، فهذه تعليمات يبدو أن المتعاطفين مع الديكتاتور المنشق منذ الشهور الأولى للحرب قد طبقوها بالحرف الواحد.

الأهداف الأولية

أصدرت "المقاومة العراقية" في نهاية عام ٢٠٠٣م بيانا رسميا يتعلق بالأهداف الأولية. وكان المترجمون من بين هذه الأهداف، يحتلون المرتبة السادسة، لكن سرعان ما تقدموا في هذا التصنيف الأساسي. وإن نص البيان بالكامل لا يثير غموضاً:

" بسم الله الرحمن الرحيم، أثبتت المقاومة العراقية استقرارها الوطني والإسلامي مما يدل على إيمانها ونزاهتها وطهارتها وأمانتها. كما أثبتت شرعيتها ومصداقيتها باستهدافها أعداء الله فحسب، وكذلك الأهداف الأولية الآتية:

١. المحتلون الأمريكيون والبريطانيون.
٢. الجواسيس الأجانب مهما كانت الصفة التي يتخفون بها (خبراء، متعاقدين، رجال أعمال، إلخ).

٣. الثيران حلفاء جنسيات أخرى.
٤. المرتزقة من جنسيات مختلفة من قام المحتلون بتوظيفهم، بما في ذلك من هم من البلاد العربية والمسلمة.
٥. عملاء الاحتلال الذي وضعتهم الإدارة الأمريكية في وظائف حكومية (وزراء، نواب، مستشارين، إلخ)
٦. الأفراد الذين يعملون لصالح المحتل مثل المترجمين والمرشدين.
٧. الأفراد الذين يحركهم المحتل مثل أفراد الميليشيات الكردية والشيعية".

رواج الإعدام بقطع الرأس

في الحادي عشر من أكتوبر عام ٢٠٠٤م، قامت إحدى جماعات الثورة العراقية[١٠] الأكثر نشاطاً بقطع رأس مترجم يعمل لصالح الجيش الأمريكي.

كان المترجم الذي قُطع رأسه أمريكيا من أصول عراقية، إذ قام جيش أنصار السنة[١١] بنشر تصوير فيديو نحره نشراً واسعاً على شبكة الأنترنت.

في هذا التسجيل، قد نفذ الخاطفون مخططا ضخما على البطاقة التعريفية المهنية للضحية، مما أوقع رب العمل شركة (Titan) وأجبرها على تحمل مسؤوليتها. لكن في اعترافاته المسجلة بالفيديو قبيل تنفيذ الإعدام، كان المترجم يقول أنه يعمل لصالح الجيش الأمريكي في قاعدة تقع بالقرب من مدينة الرمادي وأن الثوار قبضوا عليه في طريق بغداد.

---

[١٠] انظر الاعلان على موقع الانترنت www.nbcsandiego.com/news/3802600/detail.html.. المؤلف

[١١] انظر فيدير ماتيو، P. Harling "من هم الثوار العراقيون؟" صحيفة لوموند الديبلوماسية في شهر مايو ٢٠٠٦م، صفحة ٨. المؤلف

في اليوم التالي، صرح مدير الشركة الأمريكية التي وظفت هذا المترجم التصريح التالي: "نعرب عن كامل تعاطفنا مع أسرته ومع زملائه المترجمين الذين يخدمون بلدهم بكل شجاعة".

وقد أضاف في بيانه الصحفي: " إن هذا الإعدام البشع الذي وقع ضحيته واحد من مترجمينا يمثل صدمة قوية جداً علينا، غير أن هذا لن يثبط عزيمتنا عن خدمة قضية السلام في العراق. وسوف يستمر مترجمونا في العمل إلى جانب قواتنا المسلحة العظمى".

في عام ٢٠٠٤م، قام الجيش الأمريكي بتجديد عقد هذه الشركة لتوفير "لغويين". حتى لقد طلب ٤٥٠٠ مترجم إضافي ناطق بالعربية. حيث كان ينص العقد الذي تبلغ قيمته ٤٠٠ مليون دولار على أنه ينبغي على المترجمين المعنيين مساندة الجيش الأمريكي خلال ستة أشهر "مع إضافة التمديد لمدة ستة أشهر إضافية"، وهذا ما تم فعله.

وفي العام ٢٠٠٥م، كانت ترى وكالة الصحافة الأمريكية المشتركة أن أخطر مهنة في البلد وأقلها أماناً في العالم - في العراق- هي مهنة المترجم.

هي تذكر بأن هناك عشرات المترجمين الذين يتعرضون لاغتيالات كل شهر بما يمثل حسب تقديراتها ٤٠٪ من الضحايا المدنيين المسجلين لدى وزارة العمل. لكن يعزى غياب وجود إعلانات لهذا القتل الجماعي إلى قلة وجود ضحايا أمريكيين من المترجمين: فعلى سبيل المثال في عام ٢٠٠٥م هناك ١٢ من أصل ٣٠٠ قتيل.

يلقى هؤلاء "اللغويون" حتفهم في أثناء أداء الواجب: إما في جولة تفتيشية على الأقدام برفقة جنود أمريكيين، وإما بمتابعة البحرية في عمليات التمشيط التي يقومون بها وتوطيد الأمن في الأحياء الخطرة. وهذا يجعلهم أهدافا أولية للثوار الذين يتهمونهم

بـ"العمالة مع العدو". وقد اتهمهم أئمة المساجد منذ بداية الحرب بأنهم جواسيس يجوز اغتيالهم وفقاً لدوافع دينية. يعلم جميع المترجمين أنهم سوف ينحرون إذا وقعوا في أيدي العصابات. بالتالي، ينم الاستمرار في العمل لصالح الأمريكيين في ظل هذه الظروف عن تحدٍ أو استهتار.

في نهاية عام ٢٠٠٤م، استطاع العالم أجمع رؤية تسجيل الفيديو الذي عرض نحر مترجم عراقي يبلغ من العمر ٤١ سنة كان يعمل لصالح شركة Titan. كان اسمه لقمان محمد كردي حسين. أرادت الجماعات المسلحة بذلك أن تجعله عبرة وأن تنشر الرعب في قلوب المتواطئين مع الأمريكيين.

في الوقت نفسه، ظهر مترجم سوداني في تاريخ ٣٠ أكتوبر ٢٠٠٤م بالتحديد، اسمه نور الدين زكريا على قناة العربية الإخبارية بعد اختطافه في مدينة الرمادي، حيث قام الثوار باستجوابه ومن ثم أخلوا سبيله، لكن بعد أن حلف يميناً بقطع كل تعامل مع الأمريكيين.

في شهر مارس عام ٢٠٠٣م، قام رجال مسلحون باختطاف خمس مترجمات وهن في طريقهن إلى عملهن في المنطقة الخضراء في مدينة بغداد. فقد تم اغتيالهن جميعاً ورميهن على جانب الطريق.

تبين السهولة والتنظيم اللذان يصل بهما الثوار إلى المترجمين أن هؤلاء يشكلون هدفا مميزاً ومستهدفاً يومياً دون أن يكون هناك حماية ممكنة فعلياً، إلا إذا عزل هؤلاء المترجمون أنفسهم عزلاً كاملاً عن السكان المحليين.

بالرغم من عدم منطقية هذا الحل، فإنه دخل حيز التطبيق في النهاية بترحيل أغلبية المترجمين إلى داخل المنطقة الخضراء المحصنة والمحمية أمنياً حماية مشددة، لكن هذا أعطى نتائج عكسية عندما كان الأمر يتعلق بتسهيل التواصل من خلال وسيط تم

تشبيهه قطعياً بـ"عميل". رغبة من الأمريكيين في حماية المترجمين، فهم ما قاموا إلا بالمزيد من وصم هؤلاء المترجمين بـ "الخونة ".

حسب إحصائيات شركة Titan، هناك أكثر من ٤٠٠٠ مترجم في هذه الحالة عام ٢٠٠٥م. وقد سجلت وزارة العمل أن من بينهم ١٢٦ قتيل و١٤٩ جريح بين شهر يناير وشهر أبريل من نفس السنة، فضلاً عن عدد الضحايا غير المسجلين أو غير المعلنين خشيةً من تداعيات الدعاية السيئة للشركة.

ودفعت هذه المجزرة أرباب العمل التي وقع من بين ضحاياها المترجمون[١٢] إلى المطالبة بتشديد إجراءات الحماية وأسلحة الدفاع في الحكومة الأمريكية، بحجة أن المترجمين كانوا يشاركون في نفس المهام التي كان يمارسها الجنود، وبالتالي، كان من المفترض أن يكون لديهم نفس أدوات التسليح. وعلى الرغم من الأخطار المصاحبة، فقد لقى هذا الطلب درجة كبيرة من الاستحسان والقبول في صورة ضغوط مختلفة، إلا أنه حول بذلك المترجمين إلى جنود لا شيء يميزهم في نظر السكان المحليين عن العسكريين الذين يرتدون لباس المعركة.

منذ ذلك الحين، تفاقم عدد الضحايا من بين هؤلاء "اللغويين" بالرغم من الاحتياطات الأمنية المشددة خاصة في العاصمة بغداد. ففي عام ٢٠٠٥م، قام قائد الفرقة الأولى لسلاح الفرسان، لإثبات دعم الجيش، برئاسة مراسم احتفالين رسميين لإحياء ذكرى مترجمة ومترجم من فرقته تم نحرهما في بيتيهما على مرأى أطفالهما. وفي نهاية الاحتفال، وُزعت على جميع المترجمين خوذ متينة وسترات ضد الرصاص أكثر

[١٢] على سبيل المقارنة، خسرت الشركة الأمريكية Halliburton التي توظف أكثر من ٥٠٠٠٠ شخص في العراق وفي الكويت ٦٠ موظفا "فقط" على طول عام ٢٠٠٥ م. المؤلف

سلامة وأماناً، أملاً في أن تنقذ هذه المعدات العسكرية المتطورة جداً حياة المترجمين في الوقت المناسب.

إلا أن البعض نجا فعلاً بأعجوبة : حيث نجوا من أكثر من ١٠٠ اعتداء مسلح ومن جروح عديدة، وبذلك هم مستمرون بالعمل دون حماية لأن هذا غالباً لا يطاق: ناهيك عن كون السترة ضد الرصاص ثقيلة جداً عند حملها إذ يبلغ وزنها (١٠ كيلو غرام). أما الخوذة التي تحمل العلامة التجارية Kevlar لا يمكن تحملها كلياً في اللبس تحت شمس العراق الشديدة.

وعلى الرغم من كل هذا، يجتهد المترجمون الأمريكيون في ارتداء كل هذه الأدوات غير الملائمة كلياً للطقس الصحراوي، غير أن زملاءهم العراقيين حتى لم يحاولوا، فهم على قناعة بأن هذه الأدوات لن تغير شيئا في مصيرهم المكتوب، فلا فرار من القدر. إلا أن بعضهم مصرون على حمل البنادق من نوع AK-47 (كلاشينكوف)، فهم قد جربوا سابقاً هذه الأسلحة خلال خدمتهم العسكرية الإلزامية في عهد نظام صدام. وهذه هي الحماية الوحيدة التي يرون أنها فعالة في حالة اعتداء الثوار. فضلا عن أن هذا الأمر أنقذ حياة العديد منهم حتى إذا أصيبوا بطلقات نارية، فهم يستطيعون الصمود أمام المهاجمين بفضل بندقيتهم الرشاشة، لأن أسوأ ما عندهم أن يزجوا في السجن.

ولكن يظن المترجمون أنفسهم أحياناً أبطال أفلام الإثارة والمغامرات ويريدون أن يتقاتلوا مع المقاتلين الثوار، مما يعزز صورتهم كـ"خونة"، ويؤدي إلى نزاعات لا طائل منها تؤجج الصراع وغير مرغوب بها. وكل هذا، يفعلونه متسترين على هويتهم، لأن جل أهل اللغة قاموا بلبس القبعة السوداء خلال قيامهم بالدوريات لإخفاء هويتهم وحماية عوائلهم. لأنه إذا رآهم أي شخص كائناً من كان برفقة

الأمريكيين وتعرف عليهم، فهو بذلك يوقّع على قرار إعدامهم. ففي العراق، لا يغتفر أبداً للخونة.

ينبغي على المترجم لكي لا تُكشف هويته تجنب الحديث أمام العراقيين، وإلا فإنهم يتعرفون فوراً على اللكنة وأصل المترجم ويقتفون أثره ومن ثم يقبضون عليه ويعدمونه. وقد يبدو متناقضاً للمترجم أن لا يتكلم أمام الناس في اللغة التي يترجم إليها، لكن هذا أقل الأحتياطات التي يجب أخذها رغبة في النجاة أطول وقت ممكن. وقد تم الترصد لبعض المترجمين خلال أكثر من ستة أشهر قبل أن يقعوا في المصيدة ومن ثم يتم اغتيالهم.

الرجل ١٣

هو دافيد جي رئيس المترجمين الفوريين في الجيش الأمريكي. قتله الثوار في مدينة الموصل في الأشهر الأولى للحرب في العراق في شهر نوفمبر عام ٢٠٠٣م. وقد نجا بجلده في السابق من عشرات الاعتداءات بالسلاح الخفيف ومن الكثير من القنابل اليدوية التي لا تُعد ولا تُحصى تم إطلاقها أمام طريق دوريته.

لم يكن دافيد جي جندياً بل كان يرتدي زي الجيش، فكان مترجما متعاقدا تم توظيفه في المرة الأولى خلال حرب الخليج عام ١٩٩١م. ولأصوله المختلفة، كان في البداية مترجم لغة روسية قبل أن يصبح مترجم لغة عربية بدافع من والده الذي كان جندياً سابقاً فيتنامياً عسكرياً بالخبرة. فالحرب عبارة عن قصة عائلية عندهم.

لكن دافيد لم يكن المترجم الوحيد المقتول ذلك اليوم، فهناك آخرون سقطوا في الكمين الذي نصبه الثوار. غير أنه كان المترجم الثالث عشر رسمياً المقتول في المعركة في

العراق خلال الستة أشهر الأولى للحرب. وكان ينتابه هاجس بحدوث شيء سيء ذلك اليوم، فقد كتب ذلك في رسالة بريد إليكتروني أرسلها لوالده في الصباح نفسه.

كان دافيد جي من أهل الخليج الفارسي. وفي عام ٢٠٠٢م، قد سبق له العمل لصالح شركة أمنية تؤمن حراس لقاعدة الجيش الأمريكي اللوجيستية. وفي خلال هذه المهمة، تعرف على جندي سابق من سلاح المظلات ٨٢، من ولاية أنديانا ومتخصص بمهمات الاستطلاع في بيئة مناوئة. في شهر مارس عام ٢٠٠٣م،عندما احتل الجيش الأمريكي العراق، قام بإقناعه بالالتحاق بالجيش كمترجم فوري وذلك بإغرائه بالراتب الباهظ الذي يتقاضاه "المساعدون اللغويون" للجيش.

في العراق، كانت مهمة دافيد جي تكمن في إدارة قسم من المترجمين والتحقق من عملهم في الميدان. وكان في نفس الوقت مترجماً فورياً للسلطات ومراجعاً لزملائه المبتدئين الذين يجهلون الوسط العسكري. أحياناً، يقوم بجولات تفتيشية مع صديقه القادم من أنديانا لأن المناوشات مع العراقيين كانت تثير حفيظة الرجلين. وقُتل في أثناء إحدى هذه الاشتباكات.

كان دافيد جي يحب دول الخليج وخاصة العراق التي اكتشفها في الحرب. وتبين رسائله لوالديه التي نشروها بعد مماته سذاجة كبيرة في تناول مفهوم الحرب. فعلى سبيل المثال، كان يجد العراقيين "لطفاء ونزهاء" وربطته بهم علاقات صداقة مع عائلة بدوية كان يدعو نفسه عندها لتناول العشاء، في حين أنها قامت بالوشاية به عدة مرات. كما أنه قد تعلم بعض المزحات العراقية على الأمريكيين ويضحك منها بكل سرور. ولكن باعترافاته شخصياً، لم يكن موقفه محل اتفاق وكانت حالته منفردة في الجيش الأمريكي ومن بين المترجمين عامة. وقد دفع ثمناً باهظاً لمثاليته وعمله السطحي.

السراء والضراء عند المترجمين

أعلنت وزارة العمل الأمريكية بين عام ٢٠٠٣م وعام ٢٠٠٤م أكثر من ٢٠٠قتيل و٥٠٠ جريح من بين المترجمين. ويمثل أعلى رقم لعدد ضحايا من فئة مهنية اجتماعية. لم يتأثر أي قطاع خدماتي آخر ولم يستهدف باستمرار من قبل الثوار مثلما تم استهداف هذا القطاع.

يقع المترجمون على خط النار وهم برفقة الدوريات في الميدان أو مع القوات الخاصة خلال الغارات أو أيضاً وحدات المشاة في أثناء عمليات التمشيط. وحتى أصبحوا يمثلون عند العراقيين رمز الاحتلال ولكنهم عند الجيش الأمريكي والشركات الخاصة التي توظفهم جزء من خبرة في الميدان لإبرام عقود إدارات الدفاع الأمريكي.

وبذلك، لم يمنع هذا المترجمين من تبوأ مناصب في غاية الحساسية ومن القيام بمهمات معقدة ذات طابع عسكري، بالرغم من أنهم يعملون بمهنة مدنية. وعلى سبيل المثال، هناك كثير من الذين يتلقون أوامر للذهاب لتحديد المواقع في القرى واستخراج إحداثياتها عبر نظام GPS مما يخدم فيما بعد الجيوش المتورطة. في الوقت "الطبيعي"، يكون هذا النوع من المهمات مخصصا بطبيعة الحال لضباط الاستخبارات الأمريكية، غير أن هؤلاء الضباط ليسوا قادرين على إنجازها، نظراً لأنه يتم التعرف عليهم على الفور. وبالتالي، فالمترجمون هم المسخرون لذلك.

علاوة على ذلك، يرافق المترجمون الجيوش أحياناً، لتفادي ارتكاب أخطاء حدثت في الماضي خلال "عمليات ضد الإرهابيين" للتعرف على الأفراد المتهمين بالإرهاب. وغالباً ما يجدون أنفسهم بين نارين نار الجيش ونار الثوار، ويكونون مرغمين على المشاركة في المعارك بكل بساطة لإنقاذ أرواحهم. غير أن معارك الشارع ليست من ضمن المهمات التي نص عليها عقد "اللغوي".

غير أن بعض الشهادات التي أدلى بها المترجمون تفيد مشاركتهم بأربعين مهمة قتالية، أطلقوا من خلالها أكثر من ٥٠٠ رصاصة للدفاع عن أنفسهم أو ليدافعوا عن الجنود المتورطين. وأحياناً، حتى الجنود تقتلهم طلقات طائشة من سريتهم التابعين لها.

أُصيب بعض الجنود بجروح فور وصولهم إلى العراق وبقوا طريحي الفراش في المستشفى خلال عدة أشهر قبل تسريحهم إلى بلدهم من غير تعويضات، بل بإعاقة مدى الحياة[١٣].

تم تسريح بعض المترجمين المعافين، لكن بعد أن أدانهم الجيش بتهمة تهريب الأسلحة أو بيع غير قانوني للمعدات العسكرية (بنادق، ومسدسات، وذخائر، وستر واقية من الرصاص، إلخ) لأشخاص آخرين متعاقدين أو حتى إلى "مدنيين" عراقيين.

إن الفرق يظهر جلياً في التعامل بين المترجمين المحليين والمترجمين الذي يحملون الجنسية الأمريكية، وذلك على مستوى الراتب؛ إذ يتقاضى المترجمون المحليون خمس الراتب الذي يصرف للأمريكيين حتى من هم من أصول عراقية. لا سيما أن هذا ظلم للمترجمين المحليين الذين يعملون في الميدان، بينما يقتصر عمل المترجمين الذين يحملون الجنسية الأمريكية على ترجمة الوثائق الإدارية في داخل قواعد عسكرية تخضع لحماية أمنية. هذا يجنب على الأقل الارتفاع العبثي لعدد الضحايا الأمريكيين لكون المترجمين العراقيين الذي يعملون لصالح قوات التحالف ليسوا في عداد ضحايا الحرب. عندما يصاب المترجمون غير الأمريكيين بجروح لها حتى آثار خطيرة يُرسلون إلى الأردن لتلقي العلاج ويمنحهم التأمين ٣٠٠ دولار إعانة أسبوعية. في نهاية إقامتهم، يقترح التأمين عليهم العيش في الأردن مقابل مساعدة مالية وإما لا شيء. وعلى

[١٣] كان التأمين الذي يغطي المترجمين المبعوثين للعراق، المجموعة الأمريكية للتأمين (AIG) يرفض غالباً حتى العلاج، تحت غطاء حجج شكلية مستخرجة من العقود الموقعة. ومنذ ذلك الوقت، أعلنت إفلاسها. المؤلف.

النقيض، يُرسل زملاؤهم المترجمون الذين يحملون الجنسية الأمريكية في البداية إلى ألمانيا لتلقي الإسعافات الأولية، ومن ثم إلى الولايات المتحدة لمتابعة طبية دقيقة جداً. وبمجرد وصولهم هناك، يتم تكريمهم على أنهم جنود حرب أمريكيون قدامى ويحصلون على معاش تقاعدي وافر.